





الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

قلوب لا تنبض

أعيش عمراً بلا لحظات

أسير درباً بلا خطوات

أحوز عيناً بلا عبرات

أملك قلباً بلا نبضات

أحى أنا أم هو الممات ؟

(نبيل)

١ ـ الحكم ..

«حكمت المحكمة حضورياً، بعد الاطلاع على الأوراق، وسماع شهود الإثبات ، على المتهم (إبراهيم عبدالستار عاشور) بالأشغال الشاقة المؤبدة، ومصادرة المضبوطات و... » .

واصل القاضى تلاوة الحكم فى هدوء ورصانة ، وبدت ملامحه جامدة وهو يؤدى عمله الروتينى ، فى حين انفجرت (سلوى) باكية ، ودفنت وجهها بين كفيها وهى تصرخ فى تشنج :

– مستحيل !! مستحيل !!

التفتت إليها وجوه الحاضرين ، وأطل من عيونهم مزيج من الانفعالات المختلفة ، والعواطف المتباينة ..

كان بعضهم يحدجها بنظرات شامتة عدائية ، على الرغم من أنهم لا يعلمون شيئاً عن حالها ، بأكثر مما جمعوه من حضور جلسات محاكمة أبيها ..

والبعض الآخر تطلع إليها فى إشفاق ؛ إذ ساءهم أن ينهار كل هذا الجمال حزناً ..

كانت (سلوى) دائماً فتنة للناظرين ..

شعرها الأسود متوسط الطول يتموّج فى خصلات مغرية حول رأسها ..

وجهها النحيل ذو البشرة الخمرية يحيط بملامحها المتناسقة ، كإطار بالغ الجودة ، متألق الجاذبية ..

عيناها واسعتان ، تظللهما أهداب سوداء طويلة ، وتطل منهما زمردتان خضراوان فى لون الزرع ..

أنفها ينحدر مستقيماً دقيقاً إلى ما فوق شفتيها ..

أما شفتاها ، فهما دائرة مكتظة من الدم أحاطت بفمها ، وأطلقت سهام الإغراء على من يتطلع إليها ..

كانت رائعة الجمال بكل المقاييس ، شديدة الفتنة فى كل العيون ..

حتى فى محنتها هذه ..

لم تستطع أن تصدق لحظة واحدة إدانة والدها ..

تصورت أنها تعيش كابوساً ثقيلا، لن يلبث أن ينتهى باستيقاظها ..

إنها حتى لم ترفع كفيها عن وجهها ، إلا بعد أن خلت قاعة المحكمة من روادها تماماً ..

لم ترفعها حتى وصوت أبيها الواهن يعبر أذنيها ، صائحاً :

– أنا برىء يا(سلوى) .. برىء يا بنيتى .. صدقينى .. إنهم مخطئون ..

لم ترفع كفيها عن وجهها وصوت أبيها يبتعد ، وهم يقودونه خارج القاعة ..

لم تستطع أن تراهم وهم يقودونه إلى السجن ..

حتى دموعها توقفت عن الانهمار ، والأصوات من حولها تخفت وتتلاشى ..

وعندما رفعت كفيها عن وجهها كانت القاعة خاوية على عروشها ..

تصورت أن الدنيا كلها هكذا .. خاوية ، ساكنة ..

نهضت فى ضعف ، وساقاها تحملانها فى تخاذل ، والتقطت حقيبتها ، ثم غادرت القاعة مترنحة لا تقوى على السير ..

أدهشها أن تجد كل هذا العدد من الناس فى الشوارع ، لم يكن ازدحام الطريق شديداً ، ولكن الدهشة ساورتها على الرغم من ذلك ..

ربما كانت تتصور أن الحياة ستتوقف لمجرد أن والدها سيقضى ما بقى له من العمر خلف القضبان ..

امتلأ قلبها بالسخط على هؤلاء الذين يروحون ويغدون ، دون أن يلتفتوا إلى حزنها ..

تصورتهم جميعاً بلا قلوب ، أو أن قلوبهم قد توقفت عن النبض ..

قطعت الطريق إلى منزلها ساهمة واجمة ..

لم تشعر بطول المسافة التى تقطعها على قدميها ..

كانت مشاعرها قد تبلدت ، وقلبها لم يعد ينبض بالإحساس ، حتى أنها لم تشعر بالتعب ..

تنبهت فى اللحظة الأخيرة إلى أنها قد تجاوزت منزلها ..

توقفت لحظة ، وترددت خطواتها .. أترغب حقاً فى العودة إلى المنزل ؟

لقد صار المنزل بالنسبة لها كالقبر ..

لم يكن لها فى الحياة سوى والدها ، فقد لقيت والدتها ربها بعد مولدها بشهور قليلة ، ولم يحاول والدها أن يتزوج مرة أخرى ، قضى حياته كلها يرعاها ، ويمنحها كل ما لديه من حنان ، حتى بلغت السن التى يمكنها فيها

أن تتولى شئون نفسها ، وهنا أرادت أن ترد الجميل لوالدها ، فتولت عنه شئون المنزل كلها ، تركته يذهب إلى عمله ويعود ليجد المنزل مرتباً ، منسقاً ، وطعامه معداً..

كان قلبها يرقص فرحاً ، حينما تلمح فى عينيه نظرات الرضا والامتنان ..

كان هذا هو كل ما تطلبه فى حياتها ، ولكن توليها كل المسئوليات جاء على حساب دراستها ..

اكتفت بالحصول على شهادة متوسطة ، وظلت ترعى والدها فى انتظار خطاب التعيين ..

كانت تحيا ووالدها حياة متواضعة ، فهو لم يكن ثرياً ، كان موظفاً بسيطاً فى إحدى الشركات الحكومية ، ولكنها لم تشعر يوماً بالحاجة ، فقد كان والدها يمارس بعض الأعمال بعد انتهاء عمله الحكومى ؛ ليؤمن لها المزيد من المال ، ليغطى احتياجاتها كشابة تميل إلى إبراز جمالها ، شأنها شأن كل الفتيات فى مثل عمرها ، ولكنها لم تسأله يوماً عما يمارسه من أعمال خارج عمله الحكومى ، إلى أن جاء ذلك اليوم ، الذى ما زالت ذكراه تمزقها حتى الآن ..

يومها عادت إلى المنزل لتجده مغلقاً بالشمع الأحمر ..

هبط قلبها بين قدميها وهى تدق باب جارتها البدينة فى لهفة وجزع ..

خرجت إليها جارتها ترجرج أجزاء جسدها البدين ، وتتطلع إليها فى شماتة ..

لم يبد على وجهها أدنى أثر للتأثر وهى تقص على أذنى (سلوى) ما حدث ..

أخبرتها كيف اقتحم رجال الشرطة المنزل ، وفتشوا كل ركن من أركانه ، ثم ألقوا القبض على والدها بتهمة الاتجار فى المخدرات ..

يومها دار رأسها ، وأظلمت السماء أمام عينيها ، وسقطت مغشياً عليها ..

علمت — بعدئذ — أن تلك الجارة البدينة البغيضة لم تحاول حتى إنعاشها ..

أغلقت الباب وكأنها تبعد نفسها عن المشاكل ، وتركت (سلوى) ممددة على السلم فاقدة الوعى ..

ياله من عالم يمتلىء بأناس يحملون فى صدورهم قلو

من صخر !!

قلوب لا تنبض ..

لم تبال — يومئذ — بذلك التصرف الفظ من جارتها البدينة ، بل أسرعت فور استعادتها وعيها تجوب أقسام الشرطة بحثاً عن والدها ، وسعياً لمعرفة ما أصابه ..

باعت كل ما لديها من حلىّ لتوكل له محامياً نابهاً ..

كل ما نجح فيه هذا المحامى هو استعادة الشقة ، والسماح لها بالإقامة فيها ، ولكنه فشل تماماً فى إنقاذ والدها ..

لم تفقد ثقتها لحظة فى براءة والدها ، كانت تؤمن تماماً أنه لم ولن يتجر فى هذه السموم ، ولكن حدث ما كانت تخشاه ، وحكم على والدها بالأشغال الشاقة المؤبدة ..

فقدت النصير الوحيد لها فى هذا العالم ..

فقدت القلب النابض الوحيد فى حياتها ..

ازداد ترددها ، وقد تعلق بصرها بشرفة منزلها ، ثم حسمت رأيها فى النهاية ..

لا بد لها أن تعود إلى شقتها ..

ستواجه شماتة جارتها البدينة ، وتتحدّى إشفاق باقى الجيران ..

ستعود إلى منزلها ، وتعمل على أن يظل دائماً نظيفاً أنيقاً فى انتظار عودة والدها ..

اتخذت قرارها فى جزء من الثانية ، واندفعت تعبر الشارع نحو باب المنزل ، دون أن تنتبه إلى سيل السيارات ، الذى يتدافع عبر الشارع ..

ارتفع صرير عجلات سيارات مسرعة ، وانطلقت عدة صرخات على جانبى الشارع ، وشعرت (سلوى) فجأة بارتطام شديد فى جنبها ، وقفز جسدها الضئيل عدة أمتار ، ثم سقطت وسط الشارع ..

لم تفقد وعيها مع شدة الارتطام ، ولكنها شعرت بآلام مبرحة فى جميع أجزاء جسمها ، فاستلقت على الأرض ساكنة مغمضة العينين ، وكأنها لا تقوى على النهوض ، إلى أن سمعت صوتاً ملهوفاً ، جزعاً يهتف على بعد سنتيمترات من رأسها :

– يا إلهى !! هل ماتت ؟

انتابتها رغبة فى رؤية صاحب الصوت ، ففتحت عينيها فى بطء ، وتطلعت إلى وجهه فى اهتمام ..

كان شاباً فى منتصف العشرينات من عمره ، قصير

الشعر أسوده ، أبيض البشرة كثيف الحاجبين والشارب ، تطل من عينيه البنيتين نظرات ملتاعة عميقة ..

رأته يزداد انحناءً نحوها ، وسط عشرات الرءوس ، وسمعته يسألها فى صوت عميق استرد هدوءه :

– هل أنت بخير ؟

أجابته بكلمات بطيئة واهنة :

– حمداً لله .

عاونها على النهوض وهو يقول فى ارتباك :

– لقد عبرت الشارع فجأة ، حتى أننى لم أستطع كبح سرعتى و ...

قاطعته وهى تنفض الغبار عن ثوبها :

– أنا المخطئة ..

تصورت أن يعاتبها ، أو يثور فى وجهها مفرغاً توتره وانفعاله ، ولكنه لم يفعل ، بل عقد حاجبيه وهو يحاول استشفاف ما يدور فى عقلها ..

رفعت عينيها إليه ، وساورتها الدهشة حينما رأت عمق النظرات التى يحدجها بها ، ومرت فترة من الصمت ، قبل أن يقول فى هدوء :

- لا بد أن يفحصك أحد الأطباء .

قادها فى بساطة إلى سيارته ، وتبعته هى فى استسلام ، وانطلق بالسيارة دون أن يلتفت إليها ، وظلت هى صامتة تتأمل الطريق عبر زجاج نافـذة السيارة ، حتى توقفت أمام فيلا أنيقـة ، لا تحمـل أياً من لافتات الأطبـاء أو المستشفيات ، وعندئذ استدار إليها صاحب العينين البنيتين ، وارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة وهو يقول فى بساطة :

- ها قد وصلنا ..

• • •



٢ - الخفقان ..

ارتجف جسـد (سلوى) حينما سمعت عبارة صاحب العينين البنيتين ..

تنبهت فجأة إلى أنها تجلس داخل سيارة رجل غريب ، رأت وجهه لأول مرة منذ لحظات قليلة ..

انتابها شعور بالغضب حين تبادر إليها أنها فهمت ما يقصده ، وعادت تفحص واجهة الڤيلا بعينين غاضبتين ، وتأكدت للمرة الثانية من عدم وجود ما يشير إلى أية نواح علاجية فى الڤيلا ، فاستدارت تواجه قائد السيارة ، هاتفة فى غضب :

- من تظننى ؟ !

ارتفع حاجباه الكثيفان فى دهشة ، على حين واصلت هى فى اندفاع :

- لقـد صـدمتنى بسيارتك ، دون أن تتقـدم حتى باعتـذار ، ثم هأنتذا تقلنى إلى فيـلا مجهولة ، بحجـة فحصى طبياً ، و .....

زايلته الدهشة بسرعة ، وانعقد حاجباه فى غضب واضح ، مما جمد الكلمات فوق شفتيها ، وشعرت بمزيج

من الخوف والرهبة وهو يحدجها بنظراته الساخطة ، ثم لم يلبث أن باغتها وهو يندفع خارج السيارة ، قائلا :

– تعالىْ ..

شعرت وكأن لهجته الصارمة الآمرة قد حطمت عنادها دفعة واحدة ، وتابعته ببصرها وهو يتوجّه إلى بوابة الڤيلا ، ويتوقف عاقداً ساعديه ، ضاماً حاجبيه الكثيفين ، وكأنه لا يتوقع منها سوى الطاعة ، ففتحت باب السيارة ، وأدلت ساقيها منه فى استسلام .

لم تكد قدماها تلمسان الأرض حتى عاودها عنادها بصورة أكثر قوة ، فأغلقت باب السيارة فى عنف ، وقالت فى حدة :

– من تظن نفسك ؟ ..

تقدم منها بحركة مفاجئة ، وجذبها من معصمها وهو يقول فى غضب :

– تقدمى .. إقرئى هذه اللافتة الرخامية .

لاحظت لأول مرة تلك اللوحة الرخامية البيضاء الأنيقة ، التى حفرت فوقها كلمات صغيرة تقول :

(فيلا الدكتور أحمد سمعان) .

شعرت بالخجل لموقفها المفعم بالشك ، فأحنت رأسها ، وغمغمت فى لهجة أقرب إلى الاعتذار :

– أنت الدكتور (أحمد) ؟

لانت أساريره ، وابتسم وهو يقول :

– إنه أبى ..

ثم تحرك نحو حديقة الڤيلا وهو يقول فى صرامة :

– هيا ..

كان يتحرك ويتصرف كما لو كان رجلا اعتاد طاعة الآخرين له ، حتى أنه لم يعد يحاول أن يسأل نفسه عن احتمال عصيانهم له ، وانتقل إليها هذا الشعور ، حتى أنها تبعته فى استسلام ، ووقفت على بعد خطوات قليلة منه وهو يدق باب الڤيلا ، ولم تكد تمضى لحظات حتى فتحت الباب سيدة فى نحو الخامسة والأربعين من عمرها ، لها شعر بنى ، وعينان صارمتان ، وبشرة بيضاء ، ابتسمت وهى تتطلع إلى وجه الشاب ، ورفعت حاجبيها فى دهشة وهى تهتف :

– (ممدوح) ؟ ! .. لِمَ لم تستخدم مفتاحك ؟

(ممدوح) .. إذن فهذا هو اسمه ! .. لقد حاولت

أن تخمن له اسماً طوال الطريق ، دون أن يسمح لها خجلها بسؤاله عن اسمه ، ولكنها لم تتصور اسم (ممدوح) فى الواقع ، وإن رأت أنه اسم ظريف ، يليق بملامحه ..

سمعته يقول للسيدة فى مرح :

– لقد فضلت عدم استخدامه ، ولدىّ أسبابى الخاصة .

ضحكت السيدة وهى تقول :

– لك دائماً أسبابك يا (ممدوح) .

تنبهت السيدة فجأة إلى وجود (سلوى) ، فتأملتها فى دهشة أخجلت هذه الأخيرة ، وبعثت فى نفسها رجفة تلاشت فى سرعة كما بدأت ، ثم لم تلبث السيدة أن رفعت عينيها فى تساؤل إلى (ممدوح) ، الذى قال فى بساطة :

– لقد صدمتها بسيارتى .

تحولت دهشة السيدة إلى الجزع ودقت على صدرها ، وهى تقول :

– صدمتها بسيارتك ؟ !

ثم تحولت عيناها إلى (سلوى) تفحص جسدها فى لهفة وقلق ، وعادت ترفع عينيها المتسائلتين إلى (ممدوح) الذى قال :

– أردت أن يفحصها أبى لأطمئن .

تنهدت السيدة فى ارتياح ، وإن بدت ابتسامتها مضطربة وهى تعود إلى (سلوى) قائلة :

– كيف حالك يا بنيتى ؟ !

أجابتها (سلوى) فى سرعة ، وكأنها ترغب فى إنهاء الحديث :

– (سلوى) .. اسمى (سلوى) ، وأنا فى خير حال .

ابتسم (ممدوح) وهو يستدير إلى (سلوى) ، قائلا :

– إننا نحتاج إلى رأى خبير يا آنسة (سلوى) .

شعرت بالارتياح وهى تشاهد ابتسامته الجذابة ، وأورثها هذا الارتياح شعوراً بالذنب ..

كيف يمكنها أن تشعر بالارتياح ، ولم تمض بعد ساعة واحدة على الحكم الذى صدر ضدّ أبيها ؟ ..

كيف يخفق قلبها لرجل ما ولم تجف أحزانها بعد ؟ ..

دارت هذه الأفكار بذهنها وهى تعبر خلفه باب الڤيلا إلى ردهتها الواسعة ..

وانتبهت من أفكارها فجأة ، حينما سمعت صوتاً يفيض بالمرح ، يقول :

- هل صدمت شخصاً جديداً يا (ممدوح) ؟

استدارت إلى مصدر الصوت ، ولم تكد تفعل حتى ارتفع حاجباها فى دهشة ، فلم يكن هناك مجال للشك فى أن القادم هو والد (ممدوح) ، الدكتور (أحمد سمعان) ..

وإذا كان (ممدوح) قد ورث صرامة عينيه من والدته ، فلا ريب أنه قد ورث كل ما بقى من والده ؛ إذ كان الدكتور (أحمد) هو النسخة الكبرى سناً من (ممدوح) ..

نفس الشعر القصير ، والحاجبين الكثيفين ، والبشرة البيضاء ، والشارب الكث ، باستثناء ذلك الشيب الذى وخط فوديه وشاربه ، ومنحه مزيداً من الوسامة والوقار ، وبعض التجاعيد حول أنفه وعينيه ..

لاحظ الوالد دهشتها ، فتقدم منها يصافحها فى مرح ، قائلا :

- أنا أيضاً أراه صورة منى فى شبابى .

ابتسم (ممدوح) وهو يقدم كلاً منهما للآخر ، وشرح الموقف بكلمات موجزة ، ففحصها الأب بنظرات خبيرة سريعة ، ثم قال فى مرح :

- إنها تبدو سليمة .

ثم رفع عينين ملؤهما الطيبة إلى (سلوى) ، وسألها :

- أهناك ما يؤلمك يا بنيتى ؟

حركت رأسها نفياً فى بطء ، فابتسم الوالد ، وقال :

- كيف أعتذر عما فعله ابنى ؟ .. لقد منحوه رخصة الاصطدام قبل رخصة القيادة .

هتف (ممدوح) فى عتاب يحمل بعض المرح :

- بابا !!

ضحك الوالد ، وتناول كف (سلوى) فى راحته ، قائلا :

- إنه يغضب بسرعة ، أليس كذلك ؟

ابتسمت (سلوى) على الرغم منها ، وغمغمت :

- أنا التى أخطأت .

بدت الدهشة فى عينى الدكتور (أحمد) لحظة ، ثم لم يلبث المرح أن دفعها بعيداً وهو يقول :

- عجباً !! .. إنها المرة الأولى التى أرى فيها أنثى تعترف بالخطأ .

كان الرجل خفيف الظل إلى حد دفع (سلوى) للضحك وهى تقول :

– لكل قاعدة شواذ يا دكتور .

ابتسم وهو ينحنى نحوها ، قائلا فى بساطة :

– هل تتناولين طعام العشاء معنا اليوم ؟

أدهشتها دعوته المفاجئة ، فارتبكت وهى تقول :

– لن يمكننى الليلة و ..

قاطعها وهو يقول :

– فلتشاركينا طعام الغداء غداً إذن .

أرادت أن ترفض دعوته ، إلا أنه لوّح بكفه مستطرداً :

– ولن أقبل أى اعتذار .

شعرت بالارتياح لأسلوبه البسيط ، فغمغمت فى خجل :

– ليكن .. بإذن الله .

أرادت أن تنصرف ، ولكن الوالدة أصرّت على تقديم كوب من الشراب المثلج ، جرعته (سلوى)

بسرعة ، وكرر الوالد دعوته ، وأيدتها زوجته فى حماس ثم رافقها (ممدوح) إلى بوابة الڤيلا ، وهناك قفز خلف عجلة قيادة سيارته ، وفتح الباب الجانبى يدعوها للركوب ، فقالت فى حرج :

– لا حاجة بك لذلك ، سأستقل الحافلة و ..

قاطعها وهو يقول بلهجته الآمرة :

– سأوصلك إلى حيث تريدين ..

شىء ما فى لهجته الآمرة الصارمة يدفعها دائماً لطاعته ، ربما كان ذلك الحنان الذى يحاول الاختفاء خلف صرامته ، أو أنه ذلك الأسلوب المهذب الذى يغلف كلماته ..

المهم أنها أطاعته ، واسترخت على المقعد المجاور له ، وانطلق هو بالسيارة وهو يسألها فى لهجة بدت لها مملوءة بالدفء :

– إلى أين ؟

ابتسمت وهى تقول :

– إلى حيث صدمتنى .

ابتسم ابتسامة باهتة ، لم تلبث أن تلاشت وهو يغمغم :

ـ لا بأس .

ظلت تتأمله بنظرات مختلسة طوال الطريق ، ودارت فى عقلها تساؤلات شتى ..

أهو حقًا صارم كما يحاول أن يبدو ؟ ..

أهو من ذلك النوع من الرجال ، الذى يظن الحنان والحب ضعفاً يتعين إخفاؤه ؟ ..

لماذا امتلأت كلماته فجأة بالحنان والدفء منذ لحظات؟

لماذا تشعر نحوه بكل هذا الميل ؟ ..

توقفت تساؤلاتها فجأة ، حينما توقفت السيارة ، وسمعته يقول فى هدوء :

ـ ها نحن أولاء قد وصلنا .

لم تدر لماذا أصابها الضيق والرحلة لم تستغرق وقتاً أطول ..

غادرت السيارة وهى تقول فى ارتباك :

ـ شكراً يا سيد (ممدوح) .

ابتسم وهو يقول فى حنان :

ـ نادينى (ممدوح) فحسب .

تضرج وجهها خجلا وهى تمد يدها لمصافحته فى صمت ، وخفق قلبها حينما احتضن كفها بين راحتيه ، ورفع عينيه إلى عينيها وهو يسألها فى همس :

ـ ستأتين ؟ ! ..

وجدت قلبها يزداد خفقاناً ، وصوتها يرتجف وهى تجيبه فى إخلاص :

ـ نعم .. سأحضر ..

* * *



٣ ـ الصدمة ..

قضت (سلوى) أعجب لحظاتها هذه الليلة ..

كانت مشاعرها تتقلب ، وتتموج كأمواج البحر ..

ترتفع الواحدة منها حتى تبلغ قمتها ، ويتألق فوقها ضوء الشمس ..

ثم لا تلبث أن تعود للهبوط ، وترتطم بالشاطئ ..

ترغى وتزبد ..

ثم تنحسر لتفسح فى المجال للأخرى ..

هكذا كانت مشاعرها تلك الليلة ..

لقد صعدت فى سلالم منزلها بعد أن تركت (ممدوح) وهى تنوى مواجهة الجميع ، وتحديهم ، ولكنها لم تكد تضع قدميها على الدرج المواجه لمنزلها ، حتى انهارت روح التحدى فى داخلها تماماً ، ووجدت نفسها تخطو على أطراف أصابعها إلى باب المنزل ، وتدس مفتاحها فى ثقب الباب بأصابع مرتبكة ، ثم تتسلل إلى المنزل ، وتوصد الباب خلفها ، وهى تحرص على عدم إصدار أدنى صوت ...

أدهشها ما فعلته ، وبعث فى نفسها الحنق ..

شعرت أنها كانت أضعف من أن تواجه الجميع ..

كانت أضعف من أن تتحمل خطيئة والدها ..

خطيئة والدها ؟ ! ..

دوّت الكلمة فى أعماقها مفعمة بالمرارة ..

هل أخطأ والدها حقاً ؟ ..

هل هانت عليه ابنته حتى يدمرها بتجارة المخدرات ؟

عاد السخط يعربد فى أعماقها ..

لماذا تؤمن الآن بأن والدها قد أخطأ ؟

لماذا فقدت إيمانها ببراءته ؟ ..

لوّحت بذراعها فى غضب ، وانسالت الدموع من عينيها مع صرخات ضميرها ، الذى ألهبته أفكارها ..

انتقلت أفكارها فجأة إلى (ممدوح) ، وكأن عقلها يسعى للهروب من صرخات ضميرها ..

ارتفعت موجة الحب مع ذكر (ممدوح) ، وانحسرت موجة الحزن ...

لم تدر لماذا تغلغل (ممدوح) فى قلبها ؟..

لماذا تعلقت به عواطفها فى هذا الوقت القصير ؟ ..

هل كانت تحاول الهروب من حالة الإحباط التى غشيتها ، بعد سماع الحكم الصادر ضد والدها ؟ ..

هل تعلقت بـ (ممدوح) ؛ لأنها لمحت ظلال الدفء والحنان ، التى تختفى خلف صرامته ؟ ....

هل أعاد إليها حنانه مشاعرها نحو والدها ؟ ..

هل حطم دفؤه أسوار العزلة التى صنعها فقدان والدها ؟..

امتزجت أمواج الحب بالحزن ، وصنعا معاً موجة عالية من الخجل والندم ..

تساءلت : هل من حقها أن تحب بعدما أصاب والدها ؟

هل من حقها أن تنعم بالدفء والحنان ، فى حين يقضى والدها أيامه هناك يفترش بلاط زنزانته ، ويلتحف الخزى والعار ؟

آلمها أن تتخيل والدها فى زنزانته ، فنهضت من فراشها ، ورقدت فوق الأرض العارية ، وكأنها تشارك والدها آلامه ، وحزنه ..

تنبهت فجأة إلى أن الدموع تسيل من عينيها غزيرة منذ وقت طويل ..

لم تحاول تجفيف دموعها ..

تركتها تسيل معلنة كل الندم فى أعماقها ..

لم تنجح دموعها فى غسل أحزانها ..

لم تنزع من قلبها رغبتها فى رؤية (ممدوح) ..

كل ما فعلته دموعها أن أرهقتها ، وأرسلت النوم إلى جفونها ، فاستسلمت له ، وغابت فى نوم عميق ...

استيقظت ظهر اليوم التالى وهى تشعر بالإرهاق كما لو أنها لم تنم لحظة واحدة ..

أصابها الجزع حينما رأت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ..

تذكرت أن موعدها مع عائلة (ممدوح) فى الثانية ، فأسرعت تستعرض ثيابها القليلة ، فى محاولة لانتقاء ثوب يصلح للدعوة ..

انتقت ثوباً فى لون الزرع يقترب من لون عينيها ، له ياقة مرفوعة تخفى جزءاً من عنقها الجميل ..

كان الثوب رخيصاً بسيطاً ، ولكنه بدا على جسدها كخيوط من ذهب ، تتألق على سطح من فضة ..

أتمت زينتها فى عناية ، حتى بلغت الساعة تمام الواحدة والنصف ، فأسرعت تغادر المنزل فى لهفة ، وحمدت الله

أنها لم تلتق بتلك الجارة البدينة الشامتة ، وتوقفت أمام المنزل فى تردد ، ثم انتحت ركناً ، وأحصت القروش القليلة التى بقيت لديها ..

كانت قد نسيت أنها فقدت المورد الوحيد لها بدخول والدها السجن ..

تذكرت الآن فقط أنها تقترب من حافة الإفلاس ..

كانت ترغب فى ركوب واحدة من سيارات الأجرة إلى منزل (ممدوح) ، خوفاً من أن يتلف زحام الأتوبيس زينتها ، ولكن ذلك كان يسىء إلى ميزانيتها كثيراً ..

تذكرت أن عليها أن تبحث عن عمل لتتكفل لنفسها العيش ..

وعلى الرغم من ذلك قررت أن تستقل سيارة من سيارات الأجرة ، وعاونها الحظ ، وخلو الطرقات فى يوم الإجازة على الوصول إلى فيلا الدكتور (أحمد سمعان) فى تمام الثانية ..

طرقت باب الفيلا فى تردد ، ولكن ترددها تلاشى حينما استقبلتها والدة (ممدوح) بابتسامة ترحيب ، وقبلت وجنتيها فى سعادة ، ثم اقتادتها إلى حجرة الجلوس ،

حيث وجدت الدكتور (أحمد) ينتظرها بابتسامته المرحة ، وابتسمت وهو يصافحها فى حرارة ، قائلا :

– لو أن كل من يصدمهم ابنى بمثل هذا الجمال ، لتوسلت إليه أن يصدم بسيارته كل الحسان فى طريقه .

ضحكت فى مرح ، على حين هتفت الوالدة فى عتاب :

– (أحمد) ؟ ! ..

حدجها الوالد بنظرة خبيثة ، وقال دون أن يزايله مرحه :

– دعينى أتبسط فى الحديث يا (كوثر) ، أنت تعلمين أننى أكره الرسميات .

ضحكت الوالدة فى ارتباك ، ونقلت عينيها إلى (سلوى) وهى تقول فى لهجة أقرب إلى الاعتذار :

– إنه يتبسط مع الجميع .

ضحكت (سلوى) وهى تقول :

– إننى أفضل ذلك .

لم تستطع (سلوى) منع نفسها من اختلاس النظر حولها بحثاً عن (ممدوح) ..

وتصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، حينما قال الوالد فى تخابث مرح :

– إنه لم يعد من عمله بعد .

أطرقت خجلا ، وغمغمت وهى تحاول إخفاء ابتسامتها :

– هل يعمل فى أيام الإجازات ؟

مط الوالد شفتيه ، وقال فى مرح :

– عمله لا يرتبط بإجازات ثابتة .

منعها الخجل من أن تسأل عن نوع العمل الذى يقوم به (ممدوح) ، ولكنها شعرت بقرب لقائها به ، حينما سمعت صوت سيارته وهى تتوقف فى فناء الڤيلا ..

ازداد خفقان قلبها وهى تسمع خطواته الثابتة تقترب من حجرة الجلوس ..

ولكنها لم تستطع منع نفسها من الالتفات إليه ، حينما هتف والده فى مرح :

– هل انتهت نوبتك يا كابتن ؟

تراجعت فى جزع حينما وقع بصرها عليه ؛ فقد كان يرتدى زى رجال الشرطة ، ويحمل فوق كل من كتفيه ثلاثة نجوم لامعة ، وكان يبتسم ..

كانت ابتسامته تشى بعواطفه ، ولهفته لرؤيتها ..

ولكنها لم تبتسم ..

شعرت وكأن ذلك الزى الذى يرتديه قد أقام حاجزاً بينهما ..

تركته يلتقط كفها بين راحتيه الدافئتين وهو يقول فى حنان :

– أسعدنى أن حافظت على موعدك .

لم تستطع إجابته ..

فرت عيناها من الوقوع على وجهه ..

وتصور هو ذلك خجلا ، فاتسعت ابتسامته وهو يقول :

– سأبدل ثوبى حتى يحين موعد الغذاء .

عادت تجلس فوق مقعدها بحركة آلية ..

بل إنها انهارت فوقه ..

هو ضابط شرطة إذن ؟ ! ..

هذا يفسر صرامته ، واعتياده إصدار الأوامر ..

ولكن .. هل ضباط الشرطة يحبون ؟ ..

هل يمتلكون قلوباً نابضة كباقى البشر ؟

ليست تدرى لماذا تصورتهم من نوع آخر ..
نوع قاس كالحجر .. لهم قلوب كالفولاذ ..
ولكنها ليست مثل قلوب البشر ..
إنها قلوب لا تنبض ..
قلوب لا تخفق للحب ، ولا تستجيب للعواطف ..
قلوب من صخر ..
ظل هذا التفكير يراودها وهى تنهض إلى مائدة الطعام بعد أن بدّل (ممدوح) ثيابه ..

تناولت الطعام فى صمت ، وهى تجبر شفتيها على الابتسام من آن لآخر ، استجابة لدعابات الدكتور (أحمد) ..
حاولت أن تجد تفسيراً لكراهيتها رجال الشرطة ..
ولم يكن التفسير بعيد المنال ...
أليسوا هم من ألقوا القبض على والدها ؟! ..
أليسوا من ألقوا به وراء القضبان ؟ ..
لقد كانوا سبب حرمانها منه وحرمانه منها ..
كانوا سبب كل ما تعانيه ..
فلماذا لا تكرههم ؟..

جادلت عقلها أكثر من مرة ..
كانت تتصور أنها قادرة على إلغاء كراهيتها لكل رجال الشرطة من أجل (ممدوح) ..
هكذا قررت ..
ورفعت وجهها إليه وهى تغتصب من أعماقها ابتسامة ..
ولكن عينيها لم تلتق به ..
كان يحادث والده فى هذه اللحظة ، فقررت مشاركتهما الحديث ..
كان الوالد يقول لابنه :
– هل قرأت أخبار الصباح ؟.. لقد صدر الحكم فى قضيتك أمس .
أثار الحديث عن القضايا شجونها ، فعقدت حاجبيها وهى تسمع (ممدوح) يسأل والده فى بساطة ، وكأنما الأمر لا يعنيه :
– أية قضية ؟
أجابه الوالد وهو يلوح بكفه :
– تلك القضية التى ألقيت القبض على المتهم فيها فى منزله ..

أومأ (ممدوح) برأسه ، وكأنه يعلن تذكره ، وأنصتت (سلوى) فى اهتمام بالغ ، وقد جذب الحديث حواسها كلها ، على حين أردف الوالد وهو يتابع تناول طعامه :

– هل تذكرها ؟.. إنها قضية (إبراهيم عبد الستار عاشور) .

• • •



٤ – الكابوس ..

تراجعت (سلوى) ، وانكمشت على نفسها فى ذعر ، وامتلأ قلبها بالخوف ، حينما رأت (ممدوح) يحدق فى وجهها بغضب ، ويتقدم منها بخطوات بطيئة مخيفة ..

قفزت من مكانها ، وانطلقت تعدو خارج الڤيلا ..

حديقة الڤيلا بدت واسعة ، مترامية الأطراف ..

بوابة الڤيلا بعيدة كما لو أن بينها وبين الڤيلا أميالا ..

حاولت أن تعدو بكل ما تملك من قوة ، ولكن أقدامها كانت ثقيلة ..

كل قدم بدت وكأنها تحمل أطناناً من الفولاذ ..

اختنقت وغُصّ حلقها وهى تحاول الوصول إلى بوابة الڤيلا ..

ولكن البوابة تزداد ابتعاداً ..

وأقدامها تزداد ثقلا ..

وفجأة وجدت (ممدوح) أمامها ..

عيناه فجوتان تندلع فيهما النيران ..

أسنانه تضخمت واستطالت ..

أو هكذا خيل إليها ..

تراجعت فى ذعر وهى تلمح ذلك السكين الذى يمسك به ..

أرادت أن تصرخ ، ولكن لسانها تجمد فى حلقها ..

أرادت أن تهتف أنه يحاول القضاء عليها كما فعل بوالدها ..

عجز لسانها عن النطق ، وعجزت شفتاها عن أن تنفرجا ..

رفع (مملوح) سكينه ، وهوى بها نحوها ..

صرخت بكل ما تملك من قوة .. واستيقظت ..

لم يكن صدى صرختها قد تلاشى بعد ، حينما تنبهت إلى أن كل هذا كان مجرد كابوس جثم على أنفاسها ، وضاق له صدرها ..

تأملت جوانب حجرة نومها فى ذعر ، وكأنها تراها لأول مرة ..

اكتشفت دموعها الغزيرة التى بللت وسادتها ..

عادت تدفن وجهها بين كفيها وتنخرط فى البكاء ..

هل العالم صغير إلى هذا الحد ؟..

أهو صغير إلى حد ألا تعشق سوى ضابط الشرطة الذى ألقى القبض على والدها ؟ ..

إنه عبث الأقدار مرة أخرى ..

ألقت نظرة على ساعتها ، وأدهشها أنها لم تتجاوز العاشرة والنصف بعد ..

عادت بذاكرتها إلى تلك اللحظة ، حينما عرفت أن (مملوح) هو الذى ألقى القبض على والدها ..

لقد شحب وجهها - حينذاك - حتى كاد لونه يتحول إلى اللون الأبيض ، وجحظت عيناها حتى كادتا تقفزان من محجريهما ، وارتجفت أصابعها حتى سكبت الحساء على ثوبها ، ولاحظ الجميع ذلك التبدل الذى طرأ على ملامحها ، فأولوها اهتمامهم فى جزع ولهفة . (مملوح) نفسه ألقى صرامته خلف ظهره ، وقفز إليها فى حنان وقلق ، ووالدته ربّتت على كتفها فى أمومة افتقدتها منذ مولدها ، وأبوه أصرّ على فحصها للتأكد من حالتها الصحية ..

أحاطوها جميعاً بالعطف والحب والحنان .. ولكنها شعرت نحوهم بالنفور والكراهية ..

أليست تلك العائلة سبب حرمانها من أبيها ؟..

لقد حطموا حياتها دون أن يطرف لهم رمش واحد ..
إنهم حتى لم يفقدوا مرحهم وسعادتهم ..
حطموها دون أن يؤثر ذلك فيهم لحظة واحدة ..
أى بشر هؤلاء ؟..
امتلأ قلبها بالكراهية ، وازداد شعورها بالندم ..
لقد عشقت ، وأبوها فى سجنه ..
عشقت الرجل الذى وضعه خلف القضبان ..
يا لها من جاحدة !!
كرهت حتى قلبها ..
أى قلب هذا الذى يخفق لجلاده ؟..
قررت أن تقهر قلبها ما دام والدها فى سجنه ..
قررت أن تحيا بقلب لا ينبض ..
لم تدر أنها فى هذه اللحظة كانت محور حديث طويل بين (ممدوح) ، ووالده الدكتور (أحمد سمعان) ..
كان (ممدوح) يقول لوالده فى اهتمام :
– إنك لم تخبرنى رأيك بعد يا أبى .
ابتسم الدكتور (أحمد) فى أبوة ، وقال :

– الأمر لايحتاج إلى رأيى أيها النقيب ، إنها حياتك ، والقرار يعود إليك وحدك .
أطرق (ممدوح) قليلا ، ثم زينت شفتيه ابتسامة حانية ، وهو يقول :
– ما رأيك فيها على الأقل ؟
هز الوالد كتفيه ، وقال :
– إنها مهذبة ، جميلة ، حسنة الخلق ، ولكن هذا كل ما نعرفه عنها .
مطّ (ممدوح) شفتيه ، وقال :
– أعتقد أن هذا يكفى .
رفع الوالد حاجبيه ، وعاد يخفضهما وهو يقول :
– إنه لا يكفى على الإطلاق يا (ممدوح) ، إننا لا نعلم حتى اسمها كاملا ، ماذا يعمل والدها ؟.. أى شهادة حصلت عليها ؟
ابتسم (ممدوح) وهو يقول :
– سأتزوجها هى يا أبى .
مطّ الوالد شفتيه ، وقال :
– هذا رأى نظرى تماماً يا (ممدوح) ، فالرجل

حينما يتزوج ، لا يرتبط بزوجته وحدها ، وإنما بكل عائلتها أيضاً ، ولا تنس أن هذه العائلة ستكون أخوال أبنائك وجدودهم ، ولا شك أنك تحب أن يفخر أبناؤك بهم .

عقد (ممدوح) حاجبيه ، وقال :

– لو أن عائلتها فقيرة ، فلن يمنعنى ذلك من ..

قاطعه والده ، قائلا :

– لم أقصد هذا بقولى ، فالفقر لا يسىء لصاحبه ، وإنما قصدت أن نتأكد من أنهم شرفاء .

ارتسمت ابتسامة حانية على شفتى (ممدوح) وهو يقول فى لهجة حالمة :

– الصخور لا تنبت أزهاراً .

ابتسم والده لهذا القول العاشق ، وقال :

– ولكن ما من زهر يخلو من الأشواك .

غمغم (ممدوح) :

– إلا أزهار الجنة .

ضحك الوالد فى مرح ، وقال :

– خبرنى بالله عليك ، كيف تحولت إلى عاشق فى هذا الوقت القصير ، عهدى بك صارماً كوالدتك منذ حداثتك .

بدا (ممدوح) هائماً وهو يقول :

– لست أدرى يا أبتاه ، ربما عثرت على نموذج الفتاة التى أبحث عنها دائماً ، رصينة ، هادئة ، مهذبة .

ربت الوالد على كتف ابنه فى حنان ، وهمس :

– ربما كان القدر هو صاحب ذلك التصادم يا ولدى ، وربما كانت (سلوى) هى قدرك .

ظلت تلك العبارة تدوى فى أذنى (ممدوح) طوال تلك الليلة :

– ربما كانت (سلوى) هى قدرك .

ابتسم فى حنان وهو يستعيد اسمها أكثر من مرة .. شعر أنه أجمل اسم حملته أنثى فى الوجود ..

ظل وجهها يداعب خياله حتى غلبه النوم ، فراح فى سبات عميق ..

وجاء الصباح مختلفاً على صاحبة ذلك الوجه ، فقد استيقظت ، أو هى بالأحرى غادرت فراشها شاحبة ، إذ لم يغمض لها جفن طوال الليل ..

باتت ليلتها كلها باكية حزينة ..

تمنت لو أنها استطاعت زيارة والدها فى سجنه ، لولا تلك القوانين التى تحظر الزيارة إلا فى أوقات محدودة ..

انتابها السخط على كل القوانين ..

كيف يصدر قانون يمنع ابنة من زيارة والدها ؟..

من ذا الذى وضع ذلك القانون الجائر ؟..

إنه وحش آخر يملك قلباً بلا نبضات ..

تضاعف سخطها وهى ترتدى ملابسها ..

كان عليها أن تهبط للبحث عن عمل يقيم أودها بعد أن فقدت عائلها ..

كان عليها أن تهبط وسط عالم من قلوب لا تنبض ..

هبطت فى درجات السلم على أطراف أصابعها ، وهى تتمنى ألا تلمحها جارتها البدينة القاسية ، سليطة اللسان ..

وتنهدت فى ارتياح وهى تخطو خارج المنزل ، وتتطلع إلى الشارع المزدحم ..

أحبت الزحام هذه المرة ..

أحبته ؛ لأنه يسمح لها بالاختفاء داخله ..

بعيداً عن النظرات الشامتة ..

بعيداً عن العيون المشفقة ..

ولكنها لم تكن بعيدة إلى هذا الحد ..

لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى ارتفع من خلفها صوته..

صوت (ممدوح) يهتف باسمها ..

توقفت فى ذهول ، ثم استدارت فى بطء ، حتى التقت عيونهما ..

تطلع إلى عينيها فى صمت ، حتى سألته فى حدة :

— ماذا تريد ؟!

أدهشته حدتها ، فغمغم فى ارتباك :

— أردت أن أطمئن عليك ، فقد غادرت الفيلا أمس شاحبة الوجه و..

قاطعته فى صرامة تفوق صرامته :

— وماذا يعنيك من أمرى ؟

تضاعفت دهشته لحظة ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى الغضب ، وهو يعقد حاجبيه [illegible]فين ، قائلا :

— ماذا أصابك ؟.. أهكذا تستقبلين صديقاً ؟

أطلقت ضحكة ساخرة وصلت بدهشته إلى ذروتها ، وهى تقول :

- صديقاً ؟!

سألها فى غضب :

- هل تظنين أننى أحاول العبث بعواطفك ؟

تجاهلت سؤاله ، وتطلعت إلى ثيابه المدنية وهى تقول :

- لماذا لم تذهب إلى عملك اليوم ؟.. هل خلت الدنيا من الجرائم ؟

أجابها فى صرامة :

- لقد عملت يوم الإجازة ، وحصلت على بدل راحة .

ابتسمت فى سخرية ، واستدارت تنوى الانصراف ، ولكنه جذبها من معصمها فى حدّة ، وسألها فى صرامة :

- إنك لم تجيبى عن سؤالى .

سألته فى حدة :

- حسناً .. ماذا تريد منى بالضبط ؟

أربكه السؤال ، فقال فى تلعثم :

- إننى أريد الزواج منك يا (سلوى) .

- الزواج ؟!

هتفت بكل ما صنعته الكلمة من تفاعل فى أعماقها ..

شعرت أن قلبها يعاود الخفقان ..

لقد تمنت هذا الزواج أمسِ .. ولكن اليوم يختلف كثيراً عن أمسِ ..

تضخم شعورها بتأنيب الضمير ، فأخمد كل مشاعرها الأخرى ..

تذكرت والدها السجين ، فاختنى هواها خلف كراهيتها ..

رفعت عينيها إلى (ممدوح) ، وسألته فى برود :

- هل يمكنك حقًّا أن تتزوج ابنة ضحيتك ؟

اتسعت عيناه دهشة وهو يهتف :

- ضحيتى ؟!

أجابته فى بطء ، وهى تضغط على كل حرف من حروف كلماتها ، وكأنها تخشى ألا يستوعب معنى عبارتها :

- أنا ابنة ضحيتك .. ابنة (إبراهيم عبد الستار عاشور) !!

* * *

٥ ـ الجـلاد ..

« ابنة إبراهيم عاشور » .. « ابنة إبراهيم عاشور » ...
« ابنة إبراهيم عاشور » ..

ظلت العبارة تدوى فى أذنيه وهو يقود السيارة على غير هـدى ..

لم يكن يدرى أين يذهب ، ولا ماذا يفعل ..

لقد هبط النبأ على رأسه كالصاعقة ..

(سلوى) .. تلك الزهرة الرقيقة ابنة تاجر مخدرات ..

ابنة الرجل الذى أوقع هو به ..

يا له من قدر !!

أوقف سيارته على جانب الطريق ، وتطلع إلى المنطقة التى توقف فيها شارداً ..

عادت الأفكار تعصف برأسه ..

لقد كان فخوراً بقضية (إبراهيم عبد الستار عاشور) ..

كان فخوراً ، لأنها أول قضية يتولاها بنفسه منذ التحاقه بقسم مكافحة المخدرات ..

لمـاذا يشعر الآن بالأسف والعـار ؟..

لقد كان يؤدى واجبه ، فلماذا ينتابه الآن شعور بالخزى ؟..

قفزت أفكاره إليهـا ..

إلى (سلوى) ..

لم تكد أفكاره تتحول إليها حتى سرت فى جسده رعدة خافتة ، وتدفقت مشاعره جياشة فى صدره ..

اعترف أنه غارق فى حبها حتى أذنيه ..

تساءل فى دهشة : كيف عشقها إلى هذا الحد ، وهو لم يلتق بها إلا منذ أيام قلائل ؟..

أجابه قلبه أن الحب لا يعترف بالقواعد ، ولا يحفل باللوائح .

لقد أحبها فحسب ، وهذا ما يشعر به فى أعماقه ، وما يؤمن به فى ثنايا قلبه ..

أدار محرك سيارته مرة أخرى ، وانطلق بها إلى هدف معين هذه المرة ..

لم يتوقف إلا أمام مقر عمله ، وصعد فى درجات السلم على عجل ، ثم اندفع إلى مكتبه فى قسم مكافحة المخدرات على نحو أثار دهشة رفيق حجرته النقيب (سالم) ..

رفع (سالم) حاجبيه دهشة ، وهتف :

— يا إلهى !! هل أوحشك العمل إلى هذا الحد ؟

تجاهل (ممدوح) عبارة رفيقه ، وبادره قائلا :

— هل تذكر قضية (إبراهيم عاشور) ؟

تضاعفت دهشة (سالم) وهو يقول :

— بالطبع .. ماذا تريد منها ؟

تجاهل (ممدوح) سؤال زميله للمرة الثانية ، وقال :

— أين ملف القضية ؟

سأله (سالم) فى دهشة :

— لماذا تريده ؟.. لقد صدر الحكم بالفعل .

أطلت الصرامة من عينى (ممدوح) وهو يكرر :

— أين الملف ؟

التقط (سالم) واحداً من الملفات العديدة التى تغطى مكتبه ، وناوله لـ (ممدوح) وهو يقول :

— ها هو ذا .. كنت بسبيلى للتأشير عليه بالحفظ .

التقط (ممدوح) ملف القضية فى لهفة ، وجلس خلف مكتبه يتصفحه فى اهتمام متزايد ، حتى أن (سالم) هز كتفيه ، وقال :

— لماذا أثارت تلك القضية كل اهتمامك الآن ؟

أعاد السؤال إلى ذهن (ممدوح) ذكرى ما حدث حينما أخبرته (سلوى) أنها ابنة (إبراهيم عبد الستار عاشور) ..

تذكر كيف تسمّر فى مكانه ، وجحظت عيناه ذهولا ..

تذكر كيف انسحبت هى من أمامه ، وغابت وسط الزحام فى انكسار ..

لم يستطع أن يوقفها حينئذ ..

لم يجد فى نفسه الشجاعة لمواصلة الحديث معها ..

شعر وكأنه جلاد يسعى للاستيلاء على قلب ضحيته ..

أو كأنه ضحية لجلاد الواجب والضمير ..

طرد كل تلك الأفكار والذكريات من ذهنه ، وأجاب زميله :

— خيل إلى أننا ربما أخطأنا فى اتهام الرجل .

ارتفع حاجبا (سالم) دهشة ، وندت من فه ضحكة ساخرة وهو يغمغم :

— أخطأنا ؟!

عقد (ممدوح) حاجبيه الكثيفين ، وقال :

— ربما أسأنا تقييم الأدلة و ..

قاطعه (سالم) فى دهشة :

— ماذا أصابك ؟!.. لقد كانت الأدلة شديدة الوضوح لا تقبل الشك .

هتف (ممدوح) فى سخط :

— هذا يتوقف على الزاوية التى تنظر منها .

تراجع (سالم) بمقعده ، وغمغم فى حيرة :

— الزاوية التى أنظر منها !!

ترك (ممدوح) الملف ، واعتدل يواجه زميله ، وقال فى هدوء :

— نعم .. تماماً كالعملة ، فوصفك لها يتوقف على الجهة التى تتأملها منها .

لاحظ مزيداً من الحيرة على وجه زميله ، فاستطرد :

— ربما يبدو لك حدث ما كقرينة تدين المتهم إذا ما كنت تبحث عما يدينه ، على حين قد يبدو لك كدليل براءة ، إذا ما كنت تبحث عن ذلك .

لوّح (سالم) بكفه ، وقال فى لهجة من لم يعد يعنيه الأمر :

— افعل ما بدا لك ، فأنا أكره الأمور الفلسفية .

عاد (ممدوح) يتصفح الملف فى اهتمام ..

كانت القضية تبدو تقليدية للغاية ، فقد بدأت ببلاغ من مجهول يتهم فيه (إبراهيم عبد الستار عاشور) بالاتجار فى المخدرات ، وبناءً على ذلك بدأت سلسلة من التحريات ، تبين منها أن الرجل يعمل موظفاً حكومياً حتى الثانية ظهراً ، ثم يعمل من الخامسة إلى العاشرة فى معرض للسيارات الحديثة ، يملكه رجل أعمال يدعى (فتحى الجروانى) ، ولقد بدا الرجل فى البداية متوسط الحال ، مما لا يتفق مع تاجر مخدرات ، حتى كشفت التحريات أن رصيده فى البنك يبلغ مائتى ألف من الجنيهات ، وهنا استصدر (ممدوح) أمراً بتفتيش منزله ، وهناك عثر على حقيبة صغيرة تمتلىء بالمواد المخدرة ، فلم يعد هناك مجال للشك ، وألقى القبض على الرجل ، وتمت محاكمته ، حيث شهد معظم زملائه فى معرض السيارات أنه كان يبيعهم المواد المخدرة ، الوحيد الذى دافع عن (إبراهيم عاشور)

كان (فتحى الجروانى) صاحب المعرض ، على الرغم من أن (إبراهيم) قد اتهمه بتلفيق هذه التهمة له ، ثم عاد واعترف بتجارة المخدرات ، فصدر ضده حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة ..

أغلق (ممدوح) الملف ، واعتمد برأسه على راحته ، واستغرق فى التفكير ..

لقد اعترف الرجل ، والاعتراف كما يقولون سيد الأدلة ..

إذن فالرجل مذنب بالفعل ..

والد الفتاة التى أحبها سجين بتهمة الاتجار فى المخدرات..
يا له من قدر قاس لا يرحم !!
شعر بحبه لها يتضاعف ، فهى الآن فى أشد الحاجة إليه ..

ولكن ماذا يكون رأى والديه ؟..
— هذا مستحيل ..
هذا ما هتفت به والدته حينما عرض الأمر على والديه ..
قالتها فى صرامة وجزع ، فلم يمكنها أن تتصور زواج

ابنها ضابط الشرطة من ابنة تاجر مخدرات يقضى فترة عقوبته وراء القضبان ..

أما والده فقد شحب وجهه ، وتلاشى مرحه التقليدى وهو يغمغم :

— هذا يحسم كل شىء .

هتف (ممدوح) فى غضب :

— يحسم ماذا ؟!.. هل نحكم عليها بالإعدام لخطيئة والدها ؟

صرخت أمه فى عصبية :

— فلتذهب إلى الجحيم ، ولكننى لن أضحى بك من أجلها ..
قال فى صرامة :
— أنا وحدى صاحب القرار .
غمغم والده فى تخاذل :
— ومستقبلك ؟.. هل يحق لك التضحية به من أجلها ؟
عقد (ممدوح) حاجبيه ، وقد أصابه السؤال فى الصميم ..

هل تستحق (سلوى) أن يضحى بكل شىء من أجلها ؟!

ربما كانت المرأة أقدر على التضحية من أجل من تحب ؛ لأن الحب هو الجانب الأعظم من حياتها ، أما الرجل فعمله هو هدفه الأول ، والنجاح فى العمل بالنسبة له كل شىء ، ربما يضحى بأمواله وحياته فى سبيل من يحب ، ولكنه يتردد طويلا حينما يتعلق الأمر بنجاحه وتفوقه ..

فقدت عيناه صرامتهما وهو يرفعهما ضارعتين إلى والده مغمغماً :

– وما ذنب تلك المسكينة ؟

صاحت والدته فى غضب :

– لست أدرى ما الذى يربطك بتلك الفتاة ، لقد صدمتها بسيارتك ، وتلقت هى الاعتذار الكافى .

هتف فى عتاب واستنكار :

– أماه !!

تجاهلت ثورته الواضحة ، واستطردت فى صرامة :

– كان يمكننى أن أبحث لك عن عذر لو أنك غارق

فى حبها منذ سنوات ، ولكنك فى الواقع لم تعرفها إلا منذ ثلاثة أيام ، وهذا لا يكفى للتضحية من أجلها .

لم يستطع أن يجادل والدته فى هذه النقطة ، فهو لم يعرف (سلوى) حقًا إلا منذ ثلاثة أيام ، ولكنها تغلغلت فى أعماقه خلال هذه الأيام الثلاثة ، حتى بات وكأنه يهيم بها منذ تفتحت عيناه للدنيا ..

أى سر يكمن فى هذا الزلزال الذى يطلقون عليه اسم الحب ؟..

كيف يرتجف له القلب هكذا فجأة ، دون أسباب أو مبررات ؟..

لقد التقى بعشرات الفتيات منذ حداثته ، ولكن إحداهن لم تثر فى نفسه أكثر من إعجاب عابر ، لا يلبث أن يتلاشى ..

ولكن (سلوى) كان لها على قلبه تأثير عجيب ..

لقد خفق لها قلبه منذ وقع بصره عليها ..

بحث طويلا دون أن يجد مبرراً لكل هذا العشق ولكنه لم يستطع إنكاره ..

هذا هو الحب ..

صاعقة تنقض على القلب فى يوم صحو ، فتشعل فيه نيراناً باردة لها نشوة لا تقاوم ..

لاحظ والده حيرته ، فقال :

— لقد أعجبتنا (سلوى) بالفعل يا (ممدوح) ، ولم يكن لدىّ أنا ووالدتك أى اعتراض على زواجك منها ، ولكن الأمر الآن يختلف .

واقتربت منه والدته تربّت على رأسه ، قائلة فى لهجة حنون :

— هل تظن أننى لا أحب لك الخير ؟ .. لقد لاحظت منذ البداية هيامك بها فى أثناء تناولها طعام الغذاء معنا ، وأسعدنى هذا جدًّا ، فقد بدت لى — حينذاك — فتاة مهذبة ، على قدر عال من الخلق ، ولا تتصور أننى لم ألحظ ثوبها البسيط ، الذى يدل على رقة الحال ، ولكن هذا لم يمنعنى مطلقاً من الموافقة على زواجك منها .

ثم أسرعت تردف ، وكأنها تتدارك الأمر :

— لم أكن أعلم أمر والدها بالطبع ، وهذا يختلف .

بدا وكأنه لم يسمع عبارتها الأخيرة وهو يتمتم فى شرود :

— ثوبها يدل على رقة الحال !!

احتضنت أمه رأسه فى حنان ، وهمست فى لهجة أقرب إلى التوسل :

— عدنى أنك لن تتزوجها .

شعر أنها تطلب منه أن يكون جلاداً قاسى القلب لا يرحم ..

تطلب منه أن يوقف نبضات قلبه الذى يخفق بحب (سلوى) ..

ولكنه على الرغم من ذلك ابتسم ..

ابتسم ابتسامة هادئة أدهشت والديه ، وهو يقول فى بساطة :

— أعدك يا أماه .. أعدك أننى لن أتزوج ابنة تاجر مخدرات .

• • •



٦ ـ الأمـل ..

عادت (سلوى) إلى منزلها مكدودة ، تجر ساقيها المتعبتين جرًّا ..

لم تحاول أن تتخفى هذه المرة وهى تصعد إلى منزلها فى تخاذل ..

لم تكد تدس مفتاحها فى ثقب الباب ، حتى فتحت جارتها البدينة باب منزلها ، وتطلعت إليها فى سخرية ..

لم تبال هذه المرة بنظرات جارتها الشامتة الساخرة ، فقد كانت تحمل على كاهلها أثقالا تفوق كل هذا ، كما أن قلبها قد استقرت فيه قاعدة تؤمن بأن نصف سكان العالم يحملون قلوباً لا تنبض ..

دفعت الباب فى حدة ، ودلفت إلى شقتها ، ثم أغلقت الباب فى وجه جارتها البدينة بعنف ..

ألقت جسدها المكدود فوق فراشها دون أن تبدل ثيابها ، وحاولت أن تقنع جسدها المتوتر بالاسترخاء بحثاً عن الراحة ..

تذكرت فى ألم رحلتها اليائسة بحثاً عن عمل ، وغص

حلقها حينما استعادت كل كلمات الرفض التى واجهتها فى رحلة البحث ..

كانت تعلم أن عثورها على عمل فى هذا العصر يكاد يقرب من المستحيل ، فهى تحمل شهادة متوسطة ، وليست لديها أية خبرة على الإطلاق ..

أغلقت عينيها فى صعوبة وهى تلعن تلك القوانين التى تحرم الموظف الحكومى حقوقه من معاش وخلافه إذا ما صدر ضده حكم فى قضية تخل بالشرف ..

وقر فى قلبها أن صاحب هذه القوانين واحد من أصحاب القلوب التى لا تنبض ..

هل نسى أو تناسى أن ذلك الموظف يعول أسرة تحتاج إلى الإنفاق بعد أن فقدت عائلها ؟..

يا له من عالم قاس ! !

عادت تفتح عينيها ، وتنهض لتجلس على طرف فراشها ، ثم التقطت حقيبتها ، وأفرغت محتوياتها فوق الفراش ، وأحصت ما تبقى لديها من نقود ..

قدرت أن هذا المبلغ الضئيل يكفيها يومين فقط ،

إذا ما تناولت النذر اليسير من الطعام ، ولكن ماذا تفعل بعد ذلك ؟..

تذكرت (ممدوح) وكل الثراء الذى يعيش فيه ، وأصابها السخط .

ها هى ذى تقاسى الفقر والهوان والضياع ، فى حين يرفل جلادها فى النعيم ..

تساءلت : هل أحبت (ممدوح) حقاً ؟..

أعشقته فى هذه الأيام القلائل ؟.. أم أنها كانت تبحث فيه عن بديل لحنان والدها ؟ ..

ارتضى ضميرها الحل الثانى حتى يطفئ نيرانه ..

أما عقلها وقلبها فقد رفضا ذلك المنطق تماماً .

عادت تسترخى فوق فراشها ، وقلبها يخفق فى عناد لذكر (ممدوح) ..

وفجأة ارتفع رنين جرس الباب ..

انتزعها ذلك الرنين المفاجئ من أفكارها ، فشعرت بالضيق ، وفكرت فى إهمال ذلك الزائر ، ولكن شيئاً ما جعلها تنهض ، وتسرع إلى الباب ، وتفتحه ..

تسمرت فى ذهول ، واختلج قلبها فى شدة ، وجف اللعاب فى حلقها حتى لم تستطع النطق ..

فقد كان هو ..

كان (ممدوح) يقف أمام الباب يتأملها فى هدوء ..

كان هناك حب عميق يطل من عينيه ..

حب ألهب قلبها وعقلها ..

لم تستطع منع قلبها من الخفقان ، ولكنها منعت ملامحها من الاعتراف بحبها ..

قالت فى حدة :

— ماذا تريد ؟!

سألها فى هدوء أدهشها :

— هل تسمحين بالدخول ؟

هتفت فى عصبية :

— منذ متى يأتى الجلاد لزيارة ضحيته ؟

تجاهل قولها وهو يخطو داخل المنزل ، كما لو أنه لا يقبل المناقشة فيما قرره ، وأغلق الباب خلفه فى هدوء ، ثم وقف فى ردهة المنزل يتأمل أثاثه البسيط كما لو أنه يراه لأول مرة ، فصاحت فى غضب :

— إننى لم أبع الأثاث بعـد .
لم تكد تنطق العبارة حتى انتابها الخجل ..
شعرت أنها بهذه العبارة تشى بكل ما تعـانيه من متاعب مالية ..
ولكنه استدار إليها فى هدوء كما لو أن ذلك لم يفاجئه، تأمل ثوبها البسيط ، ثم سألهـا :
— كم يبلغ ثمن ثوبك هـذا ؟
أذهلها سؤاله ، وبعث فى نفسها الغضب ..
شعرت فى هذه اللحظة أنه حقـًا يملك قلباً لا ينبض ..
هل أتى إلى منزلهـا ليعيرها بفقرها ؟ ..
ألم يكفه أنه تركها تنصرف مقهورة هذا الصباح ، حينما علم أنها ابنة ضحيته ؟..
عاودها الحزن الذى غشيها وقتذاك ..
فبقدر ما أرادت أن تنهى علاقتها به ، تمنت أن يوقفها حينما أخبرته بالأمر ..
تمنت أن تشعر أنه لن يتخلى عنها ..
ولكنه فعل ..
وها هو ذا يأتى الآن ليعيرها بفقرها ..

أى رجل هـذا الذى أحبته ؟!
أى قلب حجرى هذا الذى خفق له قلبها ؟!
قالت فى ثورة وكأنها تتحداه :
— إن ثمنه لا يبلغ نصف ثمن تحفة واحدة مما تضمها فيلتك .
أدهشها أنه تنهد فى ارتياح ، وسألهـا :
— هل كل أثوابك رخيصة الثمن هكذا ؟
هتفت وقد أحرقها الغضب :
— ماذا تريد منى ؟.. ألم يكفك ما فعلته بوالدى ؟
اقترب منها حتى أصبح على بعد سنتيمترات قليلة من وجهها ، ونظر فى عينيها مباشرة وهو يقول فى هدوء :
— إننى لم آت ساخراً أو شامتاً يا (سلوى) لقد أتيت محبـًا عاشقاً ..
أساءت فهم عبارته ، فتراجعت وهى تقول فى ارتباك :
— ماذا تريد منى ؟
ابتسم فى حنان ، وجلس على مقعد قريب ، وقال فى هـدوء :
— أريد أن نتعاون لإثبات براءة والدك .

اتسعت عيناها ذهولا ، فبدتا أكثر جمالا من ذى قبل، وتهاوت فوق أقرب مقعد إليها وهى تغمغم غير مصدقة ما سمعته أذناها :

— براءة والدى ؟!

مال برأسه نحوها ، وقال وهو ينهل من عينيها الخضراوين :

— لقد اقتنعت ببراءة والدك ، ولكن الأمر يحتاج إلى أدلة .

هتفت فى ذهول :

— أدلة ؟!

عربد الشك فى أعماقها ..

هل يحاول خداعها بحثاً عن متعة ؟..

هل يعبث بعواطفها بعد أن عبث بحياتها ؟!..

استسلمت لراحته وهى تلتقط كفها ..

شعرت بالأمان والراحة ، حينما احتضنت راحتاه كفها ، وسمعته يقول فى ثقة :

— لقد نبهتنى أمى إلى نقطة غاية فى الأهمية .. إنك ترتدين أثواباً رخيصة الثمن ، وتقيمين فى منزل متواضع ،

كيف هذا ووالدك يربح الكثير من تجارة المخدرات — كما هو المفروض — إن النقطتين تتعارضان تماماً ، فقد يخفى الرجل ثروته عن أقرب أقربائه ، ولكنه لا يبخل بثوب أنيق على ابنته الوحيدة ، خاصة إذا لم يكن بخيلا بطبعه .

هتفت وقد أحيت كلماته الأمل فى نفسها :

— لقد كان والدى بالغ الكرم .

ابتسم وهو يتابع :

— ولكن الأدلة لفقت له فى مهارة ، ولن يمكن دحضها إلا بأدلة أقوى .

سألته فى حيرة واستسلام :

— كيف ؟

بدت ابتسامته واثقة وهو يقول :

— هذا عملى ، وسأعرف كيف أؤديه فى مهارة .

انتعش قلبها بالأمل ، وتطلعت إليه فى رجاء ، وحب..

أربكته نظراتها بكل ما تحمله ، فترك كفها من بين راحته ، ونهض قائلا :

— أعتقد أنه من الأفضل أن أبدأ بحثى على الفور .

لم تحر جواباً وهى تتأمله فى صمت ..

شعرت أن كراهيتها له تتضاءل ، وأن حبه فى قلبها يتعاظم ..

تمنت لو أنه كان صادقاً ..

لم تستطع أن تتصور كل هذا القدر من السعادة ..

براءة والدها ، وقلب حبيبها فى آن واحد ..

عاد قلبها يرتجف خوفاً من الفشل ..

ويبدو أنه قرأ هذا فى عينيها ، فقد ابتسم وهو يربت على كتفها ، قائلا فى حنان :

– فليطمئن قلبك ..

حاولت أن تبتسم ، ولكن شفتيها ارتجفتا فى حيرة ..

تصورت أن قلبها لن يحتمل كل هذا الحب والأمل ..

تصورت أنه سيتوقف من شدة سعادتها ..

تألقت عيناها فجأة بدمعة لم تلبث أن انسالت على وجنتيها تعبر عن امتنانها ..

خفق قلبه لدموعها الصامتة ..

ودّ لو أنه استطاع أن يجفف دموعها بشفتيه ..

خشى أن يشاركها دموعها ، فكسا وجهه بقناع من الصرامة وهو يقول :

– لم يحن الوقت بعد للدموع .

ثم استدار وتوجه فى خطوتين سريعتين إلى الباب ، وفتحه ، ثم توقف لحظة متردداً ، والتفت إليها مغمغماً :

– أردت أن أسألك سؤالا أخيراً .

لم ينطق لسانها بكلمة ، ولكن عينيها أجابته :

– سل ما بدا لك .

ارتبك وهو يقول فى تلعثم :

– لو نجح ما نسعى إليه .. أعنى لو وفقنى الله فى إثبات براءة والدك .. هل .. .. هل ..

تردد طويلا قبل أن يحسم الأمر ، قائلا :

– هل تقبليننى زوجاً لك ؟

تورد وجهها خجلا ، وأطرقت برأسها فى ارتباك ..

كان خجلها جواباً شافياً لسؤاله ، فتهللت أساريره ، وهتف فى سعادة لم يحاول إخفاءها :

– سأبذل كل ما لدىّ من جهد فى سبيل ذلك .

ثم أسرع يهبط فى درجات السلم قبل أن تغلبه عواطفه ..

لم يكد يتجاوز الطابق ، و(سلوى) تتابعه ببصرها فى

هيام ، حتى فتح باب جارتها السمينة ، وأطلت هى منه بوجهها المكتظ ، وقالت فى سخرية :

ـ إذا ما غاب القط فليلعب الفأر ..

حدجتها (سلوى) بنظرة غاضبة ، ثم وجدت نفسها تهتف فى سخط :

ـ أيتها الحقيرة .

وصفقت الباب فى وجه جارتها الذاهلة ، واستندت إليه بظهرها ، وهتفت من أعماق قلبها :

ـ يارب .

• • •



٧ ـ التحرى ..

صاح النقيب (سالم) فى دهشة ، حينما رأى (ممدوح) يتصفح ملف قضية (إبراهيم عاشور) مرة أخرى :

ـ يا إلهى !! لقد تجاوزت حدود المعقول ، ماذا يقلقك فى هذه القضية ؟

أغلق (ممدوح) الملف ، ونظر إليه قائلا :

ـ هل رأيت تاجر مخدرات ترتدى ابنته ثوباً لايساوى بضع جنيهات ؟

هتف (سالم) فى دهشة :

ـ ابنته ؟ ! .. ماذا تعنى ؟

تردد (ممدوح) وقد تنبه إلى زلة لسانه ، وشعر أنه يدين لزميله بالتفسير ، فانطلق يقص عليه الأمر بحذافيره ، حتى انتهى ، فشملهما الصمت لحظة ، ثم قال (سالم) فى إشفاق :

ـ أنت مخطئ يا (ممدوح) .. لقد أعماك الحب .

قال (ممدوح) فى عناد :

ـ بل قل إنه نبهنى إلى ما خفى علىّ منذ البداية .

قال (سالم) فى صرامة :

– بل أعماك عن رؤية الحقائق ، إن القضية واضحة لا تقبل الجدل .

لوّح (ممدوح) بكفه ، قائلا :

– كل الأدلة واهية ، على عكس ما تتصور ، فالمائتا ألف جنيه يمكن إيداعها فى حسابه دون أن يدرى ، فالبنوك لا تطالب المودع بتحقيق الشخصية ، على عكس الساحب .

قال (سالم) :

– هل تتصور أن شخصاً ما يضحى بمائتى ألف جنيه ، للإيقاع برجل آخر ؟

أومأ (ممدوح) برأسه إيجاباً فى قوة ، وقال :

– هل سمعت عن تاجر المخدرات الذى عرض مليون جنيه رشوة ، مقابل إفلاته ؟

تراجع (سالم) بمقعده ، وشبك أصابع كفيه وهو يقول :

– وماذا عن حقيبة المخدرات التى وجدتها فى منزله ؟

قال (ممدوح) :

– ربما أعطاها له الشخص الذى خطط للإيقاع به ، وطلب منه الاحتفاظ بها فى منزله ، دون أن يخبره بمحتوياتها .

مطّ (سالم) شفتيه ، وقال :

– إنك تخدع نفسك .

هتف (ممدوح) فى غضب :

– لماذا تثبط همتى ؟

– أحاول فقط أن أخرجك من مصيدة ذلك الحب الأعمى ..

– بأن تحطم قلبى ؟ ..

– غير مسموح لك بالحب فى أثناء العمل .

– ماذا تتصورنى ؟ .. رجلا بلا قلب .

– لا تدع قلبك يخفق إلا للعمل ..

– وهل يمكننى إيقاف نبضاته ؟

– فلتحاول .. ما دام ذلك يساعدك على أداء واجبك .

ساد الصمت لحظة ، ثم مال (سالم) نحو (ممدوح) ، وقال فى صرامة :

– لقد اعترف الرجل ، ولم يعد هناك ما تفعله .

ظلّ (ممدوح) ساكناً ، يحدق فى وجه زميله بغضب ، ثم نهض من خلف مكتبه ، وقال فى حدة :

– سأبحث أسباب هذا الاعتراف .

صاح (سالم) فى إشفاق :

– لقد اعترف يا (ممدوح) ، وهذا يكفى .

قال (ممدوح) فى عناد ، وهو يغادر الحجرة :

– فليعترف مرة أخرى على مسامعى .

استغرق الأمر بعض الوقت والمجهود ، حتى نجح (ممدوح) فى الحصول على تصريح خاص لزيارة (إبراهيم عاشور) فى سجنه ..

انتابته مشاعر شتى وهو ينتظره فى حجرة مأمور السجن ..

كان يخشى أن يكون رأى زميله صحيحاً ..

كان يخشى أن يكون قد بنى أحلامه كلها على أوهام ..

خاف أن يكون أمله فى الزواج من (سلوى) قد أظهر له أدلة زائفة ..

ازداد توتره وهو ينتظر وصول (إبراهيم عاشور) ، ووصل انفعاله إلى ذروته حينما رآه يجتاز باب حجرة

المأمور ، ويقف أمامه منكسراً ذليلا فى زى السجن الأزرق ..

لاحظ لأول مرة ذلك الشبه بين الأب وابنته ..

الوجه النحيل ، والعيون الخضراء فى لون الزرع ..

أشار إليه وهو يقول فى صوت مختنق :

– اجلس يا عم (إبراهيم) .

عرفه (إبراهيم عاشور) على الفور ..

ما من سجين ينسى سجانه ..

عرفه ، وتساءل عن سبب هذه الزيارة المفاجئة ..

عرفه ، وغمغم فى مذلة :

– عفواً يا سيادة النقيب .

نهض (ممدوح) ، وجذبه فى رفق إلى المقعد ، ثم جلس قبالته ، وتأمل لحظة ملامحه الذليلة المستسلمة ، ثم سأله فى تردد :

– هل يعاملونك معاملة طيبة هنا ؟

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة مريرة شاحبة ، وغمغم فى انكسار :

– السجن سجن ، ولو كانت قضبانه من ذهب يا سيادة النقيب .

ازدرد (ممدوح) لعابه فى صعوبة ..

لم يكن يدرى كيف يبدأ الحديث ..

فكر فى أن يخبر الرجل بكل شىء .. ولكنه فضل فى النهاية أن يخفى الأمر عنه حتى يصل إلى هدفه ، فسأله فى هدوء مفتعل :

– لماذا لا تحاول الخروج من سجنك إذن ؟

رفع إليه (إبراهيم) عينين متسائلتين ، ملأتهما الحيرة والدهشة ، فاستطرد (ممدوح) قبل أن يفقد صرامته :

– إننى أومن ببراءتك يا سيد (إبراهيم) ، ولكننى أحتاج إلى تعاونك لإثبات ذلك .

تضاعفت الدهشة فى عينى الرجل ، ومال إلى الخلف ، تاركاً ظهره يستند إلى ظهر مقعده وهو يغمغم :

– تؤمن ببراءتى !!

بدا وكأنه سيكمل عبارته بأخرى ، ولكنه لم يلبث أن أطبق شفتيه ، وعاد يطرق بوجهه أرضاً ..

ولكن (ممدوح) فهم ماذا يريد الرجل أن يقول ...

كان السؤال واضحاً فى عينيه الخضراوين ..

لماذا ألقيت القبض علىّ إذن ما دمت تؤمن ببراءتى ؟..

وما الذى جعلك تؤمن بها بعد أن انتهى كل شىء ؟ ..

كان السؤالان واضحين فى عينى الرجل ، ولكنه لم ينطقهما ، فغمغم (ممدوح) وهو يحافظ على صرامته :

– إننى أحاول البحث عن أدلة براءتك ، وهذا يحتاج إلى معاونتك ، فهل لديك ما تقول ؟

عاد (إبراهيم) يرفع إليه عينيه المتسائلتين ، ثم تردد لحظة ، قبل أن يقول فى صوت خافت :

– أأنت جاد يا سيادة النقيب ؟

أجابه (ممدوح) فى صرامة :

– كأشد ما تكون الجدية .

فتح (إبراهيم) فمه ، وكأنه يهم بالحديث ، ولكنه لم يلبث أن أطبق شفتيه ، ثم أحنى رأسه مغمغماً فى يأس :

– لا فائدة :

اقترب منه (ممدوح) ، وقال وهو يخفف من صرامته :

– أخبرنى أولا بكل ما لديك ، ثم دعنا نقرر ما إذا كان هناك أمل أم لا .

تطلّع (إبراهيم) إلى وجه (ممدوح) فى أمل ، ثم ظهرت فى عينيه نظرة فزعة أدهشت هذا الأخير ، على حين عاد (إبراهيم) يطرق برأسه مغمغماً :

– ليس لدىّ ما أقوله .

صاح (ممدوح) فى غضب :

– ماذا تعنى ؟

أجابه (إبراهيم) فى صوت مرتجف :

– أعنى أنه لا أمل فى براءتى ، فأنا أعترف بأننى تاجر مخدرات .

اتسعت عينا (ممدوح) ذعراً ، وهو يرى أمله يتحطم على شفتى (إبراهيم) ، وهتف فى جزع :

– تعترف ؟!

أشاح (إبراهيم) بوجهه ، وغمغم فى انكسار :

– هذه هى الحقيقة .



٨ – الوداع ..

اعتصر الألم واليأس والحزن قلب (ممدوح) ، وهو يدفن وجهه بين كفيه على مكتبه فى إدارة مكافحة المخدرات ، ولم ينتبه إلى زميله (سالم) حينما ناداه أكثر من مرة ..

لم ينتبه إليه إلا حينما نهض ووضع كفه على كتفه ..

انتفض فى قوة ، كأنما يستيقظ من كابوس بشع ، وتطلع إلى زميله فى حيرة ، وكأنه يراه لأول مرة ..

أدرك (سالم) العذاب الذى يعانيه (ممدوح) ، فهمس فى إشفاق :

– لقد أخطأت منذ البداية . ما كان ينبغى أن تقحم نفسك فى مثل هذا الأمر ..

غمغم (ممدوح) فى أسى :

– إننى أحبها يا (سالم) .

عقد (سالم) حاجبيه وهو يقول :

– تبًا لهذا الحب الذى يحطم إنساناً ناجحاً مثلك .

تطلع (مملوح) إلى زميله فى شرود ، وكأنه لم يفهم عبارته ، ثم غمغم فى سخط :

– لماذا يحيا فى فقر وهو يتجر فى المخدرات ؟ .. هل لديك ما تفسر به ذلك ؟

هز (سالم) كتفيه ، وقال :

– حينما كنت أعمل فى قضايا الأموال ، واجهتنى قضية لرجل اختلس نصف مليون جنيه ، واستدان خمسة جنيهات من صديق له لينفى عن نفسه التهمة ، فى حالة الإيقاع به ..

غمغم (مملوح) :

– ويهمل ابنته هكذا ؟

أومأ (سالم) برأسه إيجاباً ، وقال :

– ويهمل نفسه أيضاً إذا اقتضى الأمر ، أنت لا تعرف كيف يفكر هؤلاء المجرمون .

عاد يدفن وجهه بين كفيه ، ويتمتم فى ضعف :

– و (سلوى) ؟

– جريمة الآباء يرثها الأبناء .

– يا له من ميراث بائس !! وما ذنبهم فيما اقترف آباؤهم ؟

– هذا هو حكم المجتمع .

– ولماذا يحكم المجتمع على علاقة تخص فردين على الأكثر .

– لا بد له من أن يحكم عليهما ما داما يعيشان داخله .

– ألا يبالى المجتمع بالحب ؟

– المجتمع قاس ، لا يرحم ولا يغفر .

– فليذهب المجتمع إلى الجحيم .

– ستذهب معه ما دمت جزءاً منه .

– إننى أرفض الانتماء إلى مثل هذا المجتمع .

– إنك تنتمى إليه سواء شئت أم أبيت ، فهو مجتمع والدك ووالدتك .

– ماذا يفعل الإنسان إذن ليحقق رغباته ؟

– يجعلها معقولة مقبولة .

– وهل الحب أمر غير معقول أو مقبول ؟

– حتى الحب له قواعده وشروطه .

– الحب لا يعترف بالقواعد .

ـ هذا ما يظنه الخياليون ، ولكن الواقع يختلف .
ـ لا يمكننى أن اختار من أحبها .
ـ ولكنك تستطيع اختيار من تتزوجها .
ـ الحب الصادق مدخل للزواج .
ـ قد يغفر المجتمع حبًا غير متكافئ ، ولكنه لا يغفر زواجاً هكذا .

حدّق (ممدوح) فى وجه زميله بغضب عند هذه النقطة ، وهتف :

ـ سأتزوّج (سلوى) ، وليضرب المجتمع رأسه فى الحائط .

قال (سالم) فى إصرار :

ـ ستحطم صخرة المجتمع ذلك الرأس ، وسيفشل زواجك بعد أن تخسر كل شىء .

أشاح (ممدوح) بوجهه ، وقال فى حنق :

ـ لِمَ تبدو قاسياً هكذا ؟

أجابه (سالم) فى إشفاق :

ـ إننى أحاول أن أبصرك عما سيترتب على زواجك بابنة تاجر مخدرات .

هز (ممدوح) رأسه فى حيرة ، ثم نهض من مقعده ، وسأل فى شحوب :

ـ كم الساعة الآن ؟

ابتسم (سالم) حينما فهم مغزى سؤال زميله، وأجاب :

ـ يمكنك الانصراف الآن ، سأتولى أعمالك حتى تحين لحظة الانصراف .

راقبه (سالم) وهو يغادر حجرته فى خطوات بطيئة ، كأنما تقدم فى العمر أجيالا ، ولم يكد (ممدوح) يغلق الباب خلفه ، حتى غمغم (سالم) فى أسف :

ـ تبًا لمثل هذا الحب .

أما (ممدوح) فقد قاد سيارته عبر شوارع القاهرة فى شرود ..

لم يكن من السهل على رجل مثله أن يبتلع هزيمته ..
كان يعلم أن كل كلمة نطق بها (سالم) صحيحة ..
إن المجتمع لن يرحمه ..

وهو لن يحتمل كل هذا العذاب المترتب على زواج غير متكافئ ..

ربما استطاع هو أن يتحمل، ولكن والديه سينهاران ..

لن تتحمل والدته الصدمة ، ولن يغفر له والده عصيانه ..

تنهد فى ضيق وأسى ..

إنه يكره أن يكون ابناً عاقاً ..

إنه يؤمن أن الزواج السوى يحتاج إلى موافقة الوالدين ، فالزواج رباط اجتماعى يقوم على التلاقى والترابط ، لا على الهجر والعصيان ..

مخطئ هو من يظن أنه سيحيا زواجاً سعيداً على الرغم من والديه ، أو والدى عروسه ..

أوقف سيارته وظل شارداً بضع لحظات ، ثم كشف فجأة أنه توقف أمام منزل (سلوى) تماماً ..

تردد طويلا فى اتخاذ قراره ..

أيصعد إليها ويخبرها بالحقيقة المرة ، التى توصل إليها ؟ ..

أم ينصرف ويترك لها استنتاج الأمر ؟ ..

تردد طويلا ، ثم فتح باب سيارته ، وتوجه فى خطوات ثابتة إلى منزلها ..

لم يكد يخطو داخل بوابة المنزل ، حتى فقدت خطواته ثباتها ، وعاوده التردد مرة ثانية ..

هل سيجرؤ على مواجهتها ؟ ..

إنه يعلم أنها تتهمه بالقبض على والدها ..

كان أمله الوحيد يكمن فى إمكانه معاونة والدها ..

كان يعلم أنها ستغفر له كل شىء ، لو نجح فى إثبات براءته ..

كيف تتقبله إذن ، بعد أن فشل فى ذلك ؟ ..

هل ستقدّر محاولته ؟ ..

ترى ماذا يفعل لو أنه فى مكانها ؟ ..

انتابه اليأس وهو يحاول تصور ذلك ، فتوقفت قدماه عن مواصلة السير ، وغلبه التردد ، ثم استدار عائداً إلى سيارته ..

إنها لن تغفر له ..

انطلق بسيارته مبتعداً وهو يهتف فى أعماقه :

– وداعاً يا (سلوى) ..

لم يدر وهو ينطلق مبتعداً أن عينيها كانتا ترقبانه فى جزع ..

كانت قد قضت يومها كله تتطلع من النافذة على أمل ..

كانت واثقة من أنه سيأتى لزيارتها ، إذا ما نجح فى العثور على دليل يؤيد براءة والدها ..

نسيت ضرورة بحثها عن عمل ..

نسيت حتى جوعها ، والقروش القليلة الباقية معها ..

لم تعد تتذكر سوى الأمل ..

الأمل فى براءة والدها ..

الأمل فى حب (ممدوح) وحنانه ..

أنساها الأمل كل ما عداه ..

حتى رأته يوقف سيارته أمام منزلها ..

خفق قلبها وهى تتطلع إلى السيارة فى لهفة ..

انحنت برأسها من النافذة ، حتى كادت تفقد توازنها ..

ورقص قلبها طرباً وفرحاً ، حينما غادر السيارة ، وعبر الطريق بخطواته الثابتة ..

تصورت لحظتها أن ثباته علامة ظفر ..

تصورت أنه يحمل لها أخباراً سارة ..

عبرت ردهة المنزل قفزاً إلى الباب ، وفتحته فى لهفة ..

لم تبال بجارتها البدينة ، التى مطت شفتيها الغليظتين فى اشمئزاز ، ثم صفقت الباب خلفها فى حقد ..

لم تبال بها وهى تراها تنتظر (ممدوح) أمام باب المنزل .. ولكنه لم يصل ..

تطلعت فى بئر السلم بحثاً عنه ، ولكنها لم تجد له أثراً ، فأسرعت عائدة إلى النافذة ..

ورأته ..

ارتجف قلبها وهى تراه يمضى بسيارته مبتعداً ..

زاغت عيناها وهى تحاول متابعة سيارته وسط الزحام ، حتى اختفت عن ناظريها ..

انهارت على الأريكة المجاورة للنافذة ، ودفنت وجهها بين راحتيها ..

انهمرت الدموع من عينيها غزيرة ..

لقد فهمت رسالته ..

فهمت لماذا انصرف دون أن يجرؤ على مقابلتها ..

لقد فشل ..

فشل فى أن يعثر على دليل واحد يبرئ والدها ..

فشل فى أن يقيم الجسر الوحيد القادر على صنع اللقاء بينهما ..

فشل فى أن يمنحها السعادة والأمل والحب ..

انتهى كل شيء ..
ضاع أملها فى استعادة والدها ..
وضاع حبها الذى عاش أياماً قصاراً ..
ضاع منها كل شيء ، ولم يبق لها سوى الضياع ..
غمغمت ودموعها تسيل على وجنتيها :
ـ وداعاً يا أبى .. وداعاً يا حبى .

• • •



٩ ـ النار ..

قضى (ممدوح) ليلته يتقلب على جمر ملتهب ..
احتواه شعور بالحقارة والنذالة ..
لقد تخلى عن حبيبته فى أشد لحظات احتياجها اليه ..
تخلى عنها لأنه لم يقو على مواجهتها ..
نهشه الندم بأنيابه طوال الليل بلا رحمة ..
انهارت كبرياؤه كلها فى أعماقه ..
أى كبرياء هذه التى تمنعه من الوقوف إلى جوار حبيبته فى محنتها ؟ ..
أية كرامة لرجل تخلى عن أشد الناس احتياجاً إليه ؟..
عن حبيبته ..
ظل يتقلب فى فراشه كالمحموم حتى أشرقت الشمس، فأسرع يرتدى زيه الرسمى ، ويهبط إلى حيث أوقف سيارته ..
وقف يتأمل سيارته فى صمت ..
كانت هى سبب معرفته بـ (سلوى) ، وحبه لها ..
أيكره سيارته ، أم يحبها ؟ ..

أبدين لها بالفضل فى أول حب حقيقى يعيشه ، أم يحملها ذنب حيرته ؟ ..

طال تساؤله حتى سمع صوت والده يهتف فى دهشة :

– (ممدوح) ؟ ! .. ماذا تفعل فى هذا الوقت المبكر؟

التفت إلى والده ، الذى هبط ليرعى حديقته كعادته فى الصباح الباكر ، وغمغم فى شحوب نمّ عما يعتمل فى نفسه :

– إننى لم أنم طيلة الليل .

عقد الوالد حاجبيه فى حيرة ، ثم لم تلبث ملامحه أن لانت ، وكأنه فهم ما يعانيه ابنه ، فتقدّم نحوه ، وجلس إلى جواره على مقدمة السيارة ، وسأله فى حنو :

– أما زلت تعانى حبها ؟

أومأ (ممدوح) برأسه إيجاباً دون أن يتفوه بكلمة ، فهزّ الوالد رأسه ، وغمغم وكأنه يحدث نفسه :

– إننى لم أفهم بعد كيف تنبض القلوب بالحب .

ثم مد يده يربّت على كتف ولده ، قائلا :

– ولماذا تدفقت مشاعرك فى هذه الليلة بالذات ؟

لم يجد (ممدوح) حرجاً فى أن يقصّ على والده كل ما حدث ..

أخبره عن محاولته إثبات براءة والد (سلوى) ..

أخبره عن فشله .. عن فراره من مواجهتها ..

واستمع إليه والده فى اهتمام ، حتى انتهى من قصته ، فعقد الوالد حاجبيه ، وقال :

– هل تعلم أننى أميل إلى رأيك فى براءة والد (سلوى) ؟

هتف (ممدوح) فى دهشة :

– أحقًّا يا والدى ؟ !

ابتسم الوالد ، وقال :

– ربما لا تعلم أن مهنة الطب تصنع من صاحبها خبيراً بوليسيًّا ممتازاً .

تطلع إليه (ممدوح) فى مزيد من الدهشة ، فأردف الوالد فى بساطة :

– الطب يعتمد على فن الفراسة والاستنتاج يا (ممدوح) ، فأنت تجد نفسك أمام مجموعة من الأعراض قد تتشابه فى أكثر من مرض ، ويكون عليك

استخدام أقصى قدراتك ومهاراتك فى استنباط واستبعاد بعض الأمراض ، حتى يمكنك الخروج بتشخيص واحد فى النهاية .

ابتسم (ممدوح) ابتسامة حائرة وهو يقول :

– وما صلة ذلك بالخبرة البوليسية ؟

غمغم الوالد وهو يبتسم فى خبث :

– كلاهما متشابهان يا بنى ، والبارع فى كليهما هو من ينجح فى رؤية ما لا يراه الآخرون .

تمتم (ممدوح) ، وقد نجح والده فى جذب انتباهه تماماً :

– إننى لم أفهم بعد .

ابتسم الوالد ، وقال :

– هذا ما جعلك تتصرف بنذالة مع (سلوى) .

أحنى (ممدوح) رأسه فى أسف وندم ، ولم يجرؤ على معارضة والده ، الذى ربت على كتفه فى حنان ، وتابع قائلا :

– لقد أخطأت يا ولدى بتسرعك ، كان ينبغى أن تبدأ تحرياتك أولا ، ثم تخبرها بعد أن تجد ما يفيد

قضيتك ، بدلا من أن ترفعها إلى ذروة الأمل ، ثم تتركها تهوى إلى حضيض اليأس .

غمغم (ممدوح) فى ألم :

– نعم يا والدى .. لقد أخطأت .

ثم رفع رأسه بغتة إلى والده ، وهتف :

– ولكنك لم تخبرنى بعد عما يدعوك إلى الإيمان ببراءة والد (سلوى) .

ابتسم الأب وهو يقول فى رصانة :

– لقد رأيت مالم تروه جميعاً فى هذه القضية يا ولدى .

سأله (ممدوح) فى لهفة :

– ماذا رأيت يا أبى ؟

فى نفس الوقت الذى كان الأب يروى فيه لابنه ما رآه فى قضية (إبراهيم عاشور) ، كانت (سلوى) تستيقظ من نومها مجهدة ضعيفة ..

لم يعد النوم بالنسبة لها راحة ..

أصبح جحيماً يمتلئ بالكوابيس والقلق ..

نهضت من فراشها فى تكاسل ، وأسرعت تمنح جسدها دشًّا بارداً ، أعاد إليها بعضاً من نشاطها ،

ثم توجهت إلى المطبخ لتعدّ لنفسها كوباً من الشاى ، ولكنها لم تكد تشعل الموقد حتى أخذت نيرانه تتراقص فى ضعف ، ثم لم تلبث أن خبت وانطفأت ..

كشفت (سلوى) أنها لم تعد تمتلك حتى موقداً بعد أن فرغت أسطوانة الغاز ..

لم تكن تملك ثمن شراء أسطوانة جديدة ..

أصبحت تعانى الفقر المدقع ..

لو أنها لم تجد عملا ، فستموت جوعاً ولا شك ..

ارتدت ثيابها فى نشاط ، على الرغم من اليأس المسيطر على قلبها ..

إنها لم تعد تملك حتى ناراً تطهو عليها طعامها ..

هزّت كتفيها فى لا مبالاة .

لم يعد هناك ما يهمها فى الحياة بعد أن فقدت والدها وحبيبها معاً ..

أسرعت إلى باب المنزل ، ولم تكد تفتحه حتى طالعها وجه صاحب العمارة ..

تذكرت على الفور أن اليوم هو أول أيام الشهرّ ، موعد سداد إيجار المنزل الذى يؤويها ..

ارتبكت ، ودار رأسها وهى تبحث عن كلمات مناسبة لتعتذر عن سداد الإيجار ..

ولكن عينيها التقتا بعينى جارتها البدينة ، التى كانت تتناول الإيصال بعد سداد إيجار منزلها ..

شعرت بالضيق حينما حدجتها الجارة السمينة بنظرة شامتة ، عندما التفت إليها صاحب العمارة وطالبها بسداد الإيجار ..

حاولت أن تفرّ من عينى جارتها البدينة وهى تغمغم فى خجل :

ـ لن يمكننى سداده اليوم .

كانت تعلم أن صاحب العمارة واحد من أولئك الذين يمتلكون قلوباً لا تنبض ..

كانت تعلم أنه سيحاول استغلال الفرصة وطردها من المنزل مستغلا ثغرات القانون ..

ولكن هذا لم يزعجها ..

أزعجتها عبارة جارتها البدينة ، التى قالت فى شماتة واضحة ، وبكلمات ممطوطة سخيفة :

ـ لماذا ؟.. ألا تربح المخدرات كثيراً هذه الأيام ؟

استدارت إليها فى غضب ، وهمت بالصراخ فى وجهها بكلمات جارحة ، لولا أن ارتفع صوت تعرفه جيداً ، يقول فى صرامة :

– البدانة تربح أكثر .

استدارت عيون الجميع إلى مصدر الصوت ، وأصابتهم دهشة شديدة ..

كانت دهشتها هى أعظمهم .. فقد كان هو ..

كان (ممدوح) يصعد فى درجات السلم فى رصانة ، مرتدياً زيه الرسمى ، وقد تألقت فى عينيه نظراته الصارمة ..

تراجعت الجارة البدينة إلى شقتها فى سخط ، ولكنها لم تغلق الباب خلفها ، حتى لا يفوتها اختلاس النظر إلى الموقف ..

أما (سلوى) فقـد ظلت صامتة ، تحدق فى وجه (ممدوح) ، الذى توجه إلى صاحب العمارة وكأنه لم يرها ، وسأله فى صرامة :

– كم يبلغ إيجار المنزل ؟..

كان للزى الرسمى ، ولنظرات (ممدوح) الصـارمة تأثيرهما على صاحب العمارة ، الذى تراجع مغمغماً :

– يمكننى أن أنتظر بضعة أيام أخرى ..

سأله (ممدوح) فى صرامة :

– كم يبلغ الإيجار ؟

تردد الرجل لحظة ، ثم أجابه :

– عشرة جنيهات ونصف الجنيه .

أخرج من جيبه بضع ورقات مالية ، ناولها للرجل وهو يقول فى صرامته المعهودة :

– هاك إيجار ثلاثة أشهر مقدماً ، استخرج إيصالا بالمبلغ .

أرادت أن تمنعه من سداد إيجار منزلها .. ولكن جزءاً من أعماقها أبى عليها أن تفعل ..

كان ذلك الجزء يشعر بالسعادة ؛ لأنه يتولى أمرها ..

لذا فهى لم تعترض ..

اكتفت بالعودة إلى منزلها ، وتركت بابه مفتوحاً ، وكأنها تدعوه إلى الدخول ..

تناول هو الإيصال من الرجل ، ثم عبر إلى داخل المنزل فى بساطة ، وكأنه يعبر باب منزله ..

كان هـذا الأسلوب يدهشها ..

إنه يفعل كل شيء ، وكأن من حقه أن يفعله ..

كان يحصل على كل ما يريد فى بساطة ، وكأنما اعتاد ذلك ..

استدارت تنظر إليه فى تساؤل وحيرة ..

لم تستطع إخفاء إعجابها بوسامته فى زيه الرسمى ، فقالت فى حدة ، وكأنها تطرد من أعماقها ميلها إليه :

– سأسدد لك المبلغ حينما أعثر على عمل .

خلع قبعته الرسمية وهو يقول فى صرامة :

– كفى سخافات طفولية .

ثم استطرد ، وقد تمّ انعقاد حاجبيه الكثيفين عن الغضب :

– لماذا لم تخبرينى أنك تعانين أزمة مالية ؟

أجابته فى عناد طفولى :

– ولماذا أخبرك ؟.. ما شأنك بى ؟

تجاهل غضبها المفتعل ، وسألها :

– متى أحضر والدك تلك الحقيبة السوداء إلى هنا ؟

كان السؤال مفاجئاً ، فأجابته فى دهشة :

– أية حقيبة ؟

أجاب فى جدية :

– تلك الحقيبة السوداء التى كانت تحوى المخدرات .

صمتت لحظة وهى تحاول أن تتذكر ، ثم أجابت :

– قبل ثلاثة أيام من إلقائكم القبض عليه ، لقد جاء بها إلى هنا ، وقال : إن رب عمله طلب منه الاحتفاظ بها فى المنزل ؛ لأنها تحوى أوراقاً خاصة ، ولقد قلت ذلك فى التحقيق .

لم يبد فى ملامحه أن تلك المعلومة قد أثارت اهتمامه ، وعاد يسألها :

– هل زار (فتحى الجروانى) والدك فى أثناء نظر قضيته ؟

أجابت وقد انتقل إليها جزء من اهتمامه :

– بلا شك ، لقد التقى به أكثر من مرة على الرغم من اتهامات والدى المتوالية له .

صمت لحظة ، وظهرت على وجهه دلائل التفكير العميق ..

صمتت هى أيضاً ، وقد اشتعلت فى قلبها نيران لا تخمد ..

نيران الشك والتساؤل ..

هل يحاول حقاً إنقاذ والدها ؟..

لماذا فرّ من مواجهتها أمس إذن ؟..

تأملت ملامحه مرة أخرى فى حنان ..

لم تستطع إنكار حبها له ، وهيامها به ..

على الرغم من أنه الرجل الذى ألقى والدها فى السجن ..

عجيبة هى قلوب البشر !! ..

قد تتوقف طويلا عن النبض دون أن تبدى اعتذاراً ..

ثم تنطلق فجأة فى خفقان قوى دون أن تقدم أسباباً ..

هى خفاقة إذا أحبت .. ساكنة إذا ما أبغضت ..

شعرت (سلوى) فى تلك اللحظة أنها عاجزة عن كراهيته ..

شعرت أنها تحبه من أعماق قلبها ..

كانت تعلم أنه ما زال يرغبها ..

وكانت هى أيضاً ترغبه ..

ولكن قضبان زنزانة والدها كانت تقف حاجزاً بينهما ..

أحست أنها تعيش فى سجن بلا قضبان ..

سجن من التردد والحيرة ..

سجن من نيران العذاب ..

فوجئت بـ (ممدوح) يرتدى قبعته الرسمية ، ويتوجه فى خطوات واسعة إلى الباب ، فأسرعت خلفه ، وسألته فى انفعال :

— إلى أين ؟.. إنك لم تخبرنى عما توصلت إليه .

التقت عيناه بعينيها فى نظرة طويلة صامتة ..

تذكر نصيحة والده فى ألا يمنحها أملا زائفاً ، فقال فى هدوء بذل جهداً مضاعفاً للمحافظة عليه :

— سأخبرك بكل شىء فى حينه .

تعلقت بذراعه ، وهتفت فى لهجة أقرب إلى التوسل:

— أرجوك .

ربّت على كفها ، وقال فى حنان :

— اطمئنى .

ثم غادر المنزل على عجل ، قبل أن تهزمه عواطفه أمامها ، وقاد سيارته فى سرعة إلى مقر عمله ، ولم يكد

يصل حتى أسرع يصعد إلى مكتب رئيس قسم مكافحة المخدرات ، وما أن وقف أمامه حتى أدّى التحية العسكرية ، وقال فى اهتمام وصرامة :

– لو أذنت لى يا سيدى ، فلدى جديد أريد إضافته الى قضية (إبراهيم عبد الستار عاشور) .

• • •



١٠ – الاعتراف ..

ارتجف جسد (إبراهيم عاشور) ، حينما علم أن النقيب (ممدوح سمعان) يطلب مقابلته للمرة الثانية ، وسار خلف السجان إلى حجرة المأمور وهو يجر ساقيه جرًّا ...

لم تكن قضبان السجن هى التى تعذبه ..

كان يعيش داخل سجنين ..

سجن له قضبان من الفولاذ يقوم عليه سجانون قساة ..

وسجن صنعته الحيرة والقلق والعذاب ..

كان سجنه الأعظم هو خوفه على تلك الابنة الوحيدة التى تركها خلفه ..

كانت (سلوى) هى كل حياته ، وكل ما بقى له فى هـذه الدنيا ...

لم يدّخر وسعاً فى حياته كلها ، ليوفر لها الأمان ، والسعادة ..

حتى كان ما كان ...

أشد ما يؤلمه أن تنهار صورته فى عينى ابنته ..

لم يعذبه الحكم الذى صدر ضده بقدر ما أحرقه عدم قدرتها على رؤيته حينذاك ..

لقد تمنى وهم يقودونه إلى السجن لو أنها أسرعت إليه، وبكت بين يديه ..

ولكنها لم تفعل ..

انفطر قلبه يومها، حين رآها تدفن وجهها بين كفيها تتفجر بالبكاء ..

صرخ يومها محاولا أن يؤكد لها براءته ..

لم يكن يعنيه أن يعتبره العالم كله مجرماً ..

إلا ابنته ..

لقد فعل كل هذا من أجلها ..

من أجل (سلوى) ..

وقف يرتعد أمام باب المأمور، قبل أن يدفعه السجان إلى الداخل فى قسوة ..

لم يستطع أن يرفع عينيه فى وجه (ممدوح) ، الذى وقف يتأمله فى صمت ..

شعر (ممدوح) بالحزن وهو يلمح الانكسار والمذلة فى وجه (إبراهيم) ..

لم يستطع أن ينسى أن هذا الرجل هو والد الفتا
التى أحبها ..

اقترب فى هدوء من (إبراهيم) ، وربت على كتف
قائلا :

ـ كيف حالك يا عم (إبراهيم) ؟

رفع (إبراهيم) عينيه الذليلتين إلى (ممدوح) وغمغم :

ـ أحمد الله يا سيادة النقيب .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال (ممدوح) :

ـ أما زلت تصرّ على اعترافك السابق ياعم (إبراهيم)؟

سرت الدهشة فى عروق (إبراهيم) حتى أعماقه ..

لم يدر لماذا يحاول (ممدوح) إقناعه بالعدول عن اعترافه ؟..

لماذا تغير موقفه إلى هذا الحد ؟..

لقد أوقع به فى السابق ، ثم ها هو ذا يسعى لإنقاذه ..

ولكنه لا يستطيع العدول عن اعترافه ..

لن يجرؤ على ذلك ..

أطرق برأسه ، متحاشياً النظر فى عينى (ممدوح)
وغمغم :

– إنه الحقيقة يا سيادة النقيب .

جاءت عبارة (ممدوح) الصارمة كالصاعقة على رأس (إبراهيم) :

– كلا .. إنه ليس الحقيقة .

رفع (إبراهيم) عينيه إلى (ممدوح) فى دهشة ، فاستطرد هذا الأخير فى هدوء :

– اسمع يا عم (إبراهيم) .. لقد أعدت دراسة قضيتك ، وتنبهت إلى نقطة غابت عن أذهاننا جميعاً منذ البداية ..

شعر (ممدوح) بالخجل وهو ينطق بهذه العبارة ، فقد كان يعلم أن والده – لا هو – الذى تنبه إلى تلك النقطة ، ولكنه مع ذلك أردف قائلا :

– ولقد جعلتنى تلك النقطة أفهم سبب اعترافك هذا .

ارتجف قلب (إبراهيم) حينما سمع عبارة (ممدوح) ، ودوى فى عقله هتاف واحد :

– (سلوى) .. ابنتى ..

بدا وكأن (ممدوح) قد قرأ هذا الهتاف فى عينيه ، فقد ابتسم وهو يربت على كتفه ، قائلا :

– يمكنك أن تطمئن تماماً يا عم (إبراهيم) ، لن يؤذى اعترافك أحداً .

أطل الخوف من عينى (إبراهيم) دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة واحدة ، فقاده (ممدوح) فى هدوء إلى أحد مقاعد الحجرة ، وجلس على المقعد المقابل له ، ومال نحوه وهو يسأله فى بساطة :

– هل تقبلنى زوجاً لابنتك يا عم (إبراهيم) ؟

لا أحد يمكنه وصف انفعال (إبراهيم عاشور) حين سمع هذه العبارة ..

قد نقول : إنه ارتجف وشحب وامتقع ..

قد نقول : إنه أصيب بالذهول والحيرة ، وعدم التصديق ..

قد نقول كثيراً ، ولكن ما أصابه حقًّا يفوق كل ما يمكننا قوله ..

غمغم (إبراهيم) :

– تتزوج من ؟!

ابتسم (ممدوح) وهو يقول :

– ابنتك يا عم (إبراهيم) ..

انفجر (إبراهيم عاشور) فجأة بالبكاء ..

أفرغ فيضاً من الدموع ضاقت بها عيناه طويلا ..

أسال أنهار الحزن التى تملأ قلبه ..

سكب عذابه وحيرته من عينيه ..

ولم يحاول (ممدوح) أن يوقفه ..

تركه يبكى حتى بدأ نحيبه يخفت ، ثم أخذ يقص عليه الأمر منذ البداية ..

منذ اصطدم بـ (سلوى) فى الطريق، وإلى هذه اللحظة ..

لم تتوقف دموع (إبراهيم) عن الانهمار طوال سماعه للقصة ، ولكنها كانت دموع صامتة يختلط الوجد فيها بالراحة والسعادة ..

ها قد اطمأنّ على ابنته الوحيدة أخيراً ..

ها قد أمن مستقبلها وحياتها ..

انتظر حتى انتهى (ممدوح) من قصته ، ثم قبض كف (ممدوح) فى راحته ، وسأله فى ضراعة :

— هل يمكنك حمايتها ؟.. هل يمكنك ذلك ؟

أجابه (ممدوح) فى لهجة حازمة ، توحى بالصدق والثقة :

— بلا شك يا عم (إبراهيم) .

تنهد (إبراهيم عاشور) فى ارتياح ، وقال وهو يسترخى فى مقعده :

— فى هذه الحالة الأمر يختلف يا ولدى ، سأخبرك بكل شىء .. إننى برىء .. إننى لم ولن أتجر فى تلك السموم .

انطلق (إبراهيم) يدلى باعتراف جديد ، يتوافق مع استنتاجات الدكتور (أحمد سمعان) ، وأرهف (ممدوح) سمعه فى اهتمام وانفعال ...

نفس هذا الانفعال أصاب (سلوى) دون أن تدرى له سبباً ...

ازداد توترها وهى تتحرك فى أرجاء المنزل جيئة ، وذهاباً بلا هدف ..

شعرت أمعاؤها بالجوع ، وأعاد إليها ذلك الشعور إدراكها للواقع ..

إن (ممدوح) قد سدد إيجار المنزل ثلاثة شهور كاملة ولكنها لا تملك ثمن طعام يومها ..

ازدادت رغبتها فى البحث عن عمل يسد رمقها ،

وازداد شعورها باليأس حينما استعادت عبارات الرفض التى واجهتها فى محاولتها السابقة ..

قفزت فجأة من مكانها وقد تذكرت شيئاً هامًّا ..

(فتحى الجروانى) .. صاحب معرض السيارات ...

لقد وقف إلى جوار والدها طويلا ، متحملا اتهاماته المتوالية ..

لا ريب أنه رجل طيب القلب ..

لا شك أنه واحد من القلائل أصحاب القلوب النابضة فى هذا العالم ..

لماذا لا تذهب إليه ؟..

إنه لن يضنّ عليها بعمل ولو صغير ..

تعمق شعورها بطيبة الرجل عندما استقبلها هاشًّا باشًّا وهو يهتف فى رقة :

— مرحباً يا بنيتى .. كيف حالك بعد ... ؟

بتر عبارته وكأنه يشفق عليها من ذكر مأساة أبيها، وقادها فى أسلوب مهذب إلى مقعد وثير فى أحد أركان مكتبه الفخم ، وأصرّ على أن تتناول كوباً من الشراب المثلج ، قبل أن يسألها فى اهتمام :

— خيراً يا بنيتى .. هل هناك خدمة يمكننى تقديمها ؟

أطرقت خجلا وهى تغمغم :

— إننى أبحث عن عمل .

هتف فى عتاب :

— عمل ؟! .. لماذا لم تلجئى لى منذ البداية ؟

شعرت بالراحة لأسلوبه الأبوى وهو يستطرد :

— إنك ابنة صديقى ، ولك عندى حقوق .

ثم انتزع حافظة نقود متخمة من سترته وهو يهتف :

— كم تريدين ؟

قالت فى خجل :

— كل ما أحتاجه هو عمل شريف و ...

هتف مقاطعاً :

— لا حاجة بك للعمل يا بنيتى ، كل ما أملكه رهن إشارتك .

يا للراحة التى سرت فى عروقها !!

ما زال العالم يضمّ أناساً لهم قلوب نابضة ..

ما زال هناك عظماء ..

ما زالت الدنيا بخير ..

تساءلت فى دهشة : كيف اتهم والدها هـذا الرجل الطيب ؟ ..

كيف تصور أن مثل ذلك القلب النابض بالعطف والحنان قادر على الإيذاء ؟..

غمغمت وهى تطرق خجلا :

— لست أدرى كيف أشكرك يا سيدى ، ولكن كل ما أحتاجه هو عمل شريف .

مط (فتحى الجروانى) شفتيه ، وقال فى أسف :

— كما تريدين يا بنيتى .

نهض من مقعده ، وسار بضع خطوات ، عاقداً كفيه خلف ظهره ، ثم سألها :

— أى عمل تجيدين يا بنيتى ؟

أجابته فى خجل :

— أنا حاصلة على دبلوم التجارة المتوسطة و ...

قاطعها هاتفاً :

— هذا عظيم .. يمكنك تولى حسابات المعرض إذن .

ثم أردف وهو يعقد حاجبيه مفكراً :

— ولنقل : إن مرتبك مائة جنيه مثلا .. هل يكفيك ذلك ؟

كان هذا أكثر مما يمكنها أن تتصور ، فهتفت فى سعادة :

— هذا كثير يا سيد (فتحى) .. كيف يمكننى أن أشكرك ؟ ..

وفجأة انقلبت الأمور رأساً على عقب ...

انقلب كل شىء فى لمح البصر ..

تماماً كما يحلو للقدر أن يعبث ..

اقتحم رجل ضخم حجرة (فتحى الجروانى) وهو يهتف غاضباً :

— هذا الرجل (عثمان) يثير بعض القلاقل ، يبدو أننا سنضطر إلى إلقائه فى السجن كسابقه العنيد و ...

بتر الرجل عبارته فجأة ، حينما وقع بصره على (سلوى) ، واحتقن وجهه بشكل عجيب ، على حين تبدلت ملامح الطيبة فى وجه (فتحى الجروانى) إلى شراسة مخيفة ، وهو يغمغم من بين أسنانه بلهجة غاضبة :

— أيها الغبى ..

قفزت (سلوى) من مقعدها مفزوعة ..

شعرت أن ساقيها تعجزان عن حملها ، فعادت تنهار فوق مقعدها وهى تغمغم فى ذهول :

– أهو أنت ؟!..

بدت عينا (فتحى الجروانى) كفجوتين من الجحيم وهو يقول فى وحشية :

– نعم .. هو أنا .

• • •



١١ – الضياع ..

انطلق (ممدوح) عائداً إلى مقر عمله وقلبه يرقص طرباً..

لقد حصل على اعتراف جديد يمكنه أن يبرئ والد (سلوى) ..

اعتراف يمكنه أن يزيل الحواجز بينهما ..

أوقف سيارته أمام مقر عمله ، وقفز فوق درجات السلم إلى مكتب رئيسه ، وهناك رفع يده بالتحية العسكرية وهو يقول بكلمات لاهثة من شدة الانفعال :

– لقد حصلت على اعتراف جديد ، يمكنه أن يبدّل قضية (إبراهيم عاشور) تماماً يا سيدى .

تطلع إليه رئيسه فى دهشة ، وسأله :

– أى اعتراف هذا ؟..

أسرع (ممدوح) يقول فى انفعال :

– إن (إبراهيم عاشور) لم يكن تاجر المخدرات الحقيق ، لقد كان يمارس بعض الأعمال فى معرض سيارات يملكه (فتحى الجروانى) ، حينما كشف أن هـذا الأخير

يعمل فى تجارة المخدرات ، فأراد استغلال الفرصة ، وهدّد الرجل بكشف أمره ما لم يدفع له مبلغاً شهريًّا يضمن سكوته ، كانت محاولة من (إبراهيم عاشور) لابتزاز (فتحى الجروانى) ، ولكن (فتحى الجروانى) لم يكن بالرجل الذى يمكنه قبول مثل هذا التهديد المستمر ، وإن تظاهر بقبول عرض (إبراهيم) ، وأعطاه الأمان الكامل ، ثم جاء يوم أعطاه فيه (فتحى) حقيبة مغلقة ، طلب منه الاحتفاظ بها فى منزله ، ولم يخف على (إبراهيم) أن الحقيبة تحوى بعض الأشياء الممنوعة ، ولكنه لم يتردد فى الاحتفاظ بها مقابل مبلغ من المال ، فقد كان يعانى الحاجة ، ورغبته فى إسعاد ابنته الوحيدة ، ولكن (فتحى) أبلغ الشرطة عن اتجار (إبراهيم) فى المخدرات ، وأرسل أحد أعوانه ليودع مبلغ المائتى ألف جنيه فى حساب (إبراهيم) ، وهكذا أوقعنا نحن بـ (إبراهيم) ، وظل يتهم (فتحى) بتلفيق التهمة له ، إلى أن زاره (فتحى) ، وهدّده بقتل ابنته الوحيدة ما لم يعترف بالتهمة ، وهنا اضطر (إبراهيم) إلى الإدلاء باعتراف كاذب يلقى به فى السجن ، خوفاً على حياة ابنته ..

استمع الرئيس إلى (ممدوح) فى اهتمام ، حتى انتهى من روايته ، ثم سأله :

— وما الذى دفعك إلى دراسة القضية مرة أخرى ؟

ابتسم (ممدوح) وهو يقول :

— الفضل يعود لوالدى يا سيدى .

تطلع إليه رئيسه فى دهشة وهو يغمغم :

— والدك ؟!

اتسعت ابتسامة (ممدوح) وهو يقول :

— نعم يا سيدى .. لقد تنبه إلى نقطة غابت عن أذهاننا جميعاً ، وهى أنه من غير المقبول أن يصر (إبراهيم) طوال الوقت على اتهام الرجل الذى يدافع عنه ، ثم يتراجع فجأة ويعترف بالتهمة بلا مقدمات ، كان هذا يشير إلى أن (إبراهيم) يحاول حماية شخص ما ، ومن غير المقبول أن يضحى الإنسان بخمسة وعشرين عاماً من عمره خلف القضبان ، إلا من أجل أعز إنسان له فى الوجود ... ابنته الوحيدة ..

عقد الرئيس حاجبيه ، ولاذ بالصمت طويلا ، ثم شبك أصابعه أمام وجهه ، وقال :

– هذا الاعتراف لا يبرئ ساحة (إبراهيم عاشور) فسيتعرض لتهمة الابتزاز ، وإخفاء حقيبة تحوى مواد محظورة ، ثم إن اعترافه لا يحوى دليلا واحداً يمكننا من إدانة رجل معروف مثل (فتحى الجروانى) .

دارت رأس (ممدوح) ، وغص حلقه فى ألم ...

لقد تحرك فى سرعة دون أن ينتبه إلى نتائج عمله ..

أخطأ فى المرة الأولى حينما أوقع بـ (إبراهيم عاشور) دون أن يدرس حالته جيداً ..

وأخطأ فى المرة الثانية حينما حاول تبرئته ، دون أن يتبين النتائج ..

انفعاله وحماسه يدفعه دائماً للخطأ ..

ليته أصغى لنصائح والده ، الذى يطلب منه دائماً التروى والصبر ..

شعر برغبة عارمة فى رؤية (سلوى) ..

أحسَّ أنه يحتاج إلى وجودها كثيراً ..

تنبه فجأة إلى أن رئيسه يحدثه ، قائلا :

– سيحصل (إبراهيم عاشور) على عقوبة تقل كثيراً عن الأشغال المؤبدة بالطبع ، ولكنه لن يحصل مطلقاً على

البراءة ، هذا لو أمكننا إثبات التهمة على (فتحى الجروانى) ..

غمغم (ممدوح) فى شحوب :

– فليأخذ العدل مجراه يا سيدى ..

غادر مقر عمله فى خطوات بطيئة مترنحة ..

قاد سيارته وهو يسبح فى بحر من الأفكار ..

لقد أصبح الحاجز بينه وبين (سلوى) قوياً يستحيل تخطيه ..

لن يحصل والدها على البراءة مطلقاً ..

ستظل ابنة سجين ..

لن تقبل أمه زواجه منها ..

إنه يعلم صرامتها وحرصها على مستقبله ..

والده أيضاً لن يقبل زواجه من (سلوى) ..

صحيح أنه لن يصرخ ، ويملأ الدنيا ضجيجاً كما ستفعل والدته ..

ولكنه سيرفض ..

يا له من عالم !!

المرة الأولى التى ينبض فيها قلبه يصطدم بكل هذه الأسوار ..

شعر بضياع لم يشعر بمثله من قبل ..
ضياع غلف حياته ومشاعره ...
ولكنه لن يستسلم للأمر ..
قبضت يداه على عجلة القيادة فى قوة وصرامة ...
إنه سيتزوج (سلوى) مهما كانت العواقب ..
لم يدر سبباً لتلك الرابطة القوية ، التى تربط قلبيهما ، على الرغم من علاقتهما القصيرة ..
ولكنه شعر أنه قادر على التضحية بكل شىء من أجلها ..
كشف فجأة أنه كان يسير إلى حيث منزلها بالفعل ..
ازداد إصراره على الزواج منها وهو يصعد فى درجات السلم ، ويدق بابها فى لهفة ..
خرجت جارتها البدينة تتأمله بنظراتها الساخرة الشامتة ، ثم قالت بلهجتها الممطوطة :
– لقد خرجت منذ الصباح ، ولم تعد بعد ..
ثم أردفت بلهجة خبيثة :
– كنت أظنها معك طوال الوقت ..
سيطر على قلبه جزع مفاجئ ..
أين ذهبت كل هذا الوقت ؟..

ترى هل أصابها مكروه ؟..
وجد نفسه يسأل الجارة البدينة فى حدة :
– هل اعتادت التأخر حتى هذه الساعة ؟
هزّت كتفيها المكتظتين ، وقالت فى سخرية :
– ليس قبل تعارفكما ..
أسرع يهبط فى درجات السلم ، وقد استولى عليه القلق حتى النخاع ..
شىء ما فى أعماقه أهاب به أن يبحث عنها ...
شىء ما أخبره أنها تتعرض للخطر ..
وكان شعوره صادقاً ..
فنى هذه اللحظة كانت حبيبته ترقد فاقدة الوعى تحت قدمى (فتحى الجروانى) ..
ذلك الذى تصورته قلباً نابضاً ..
كانت المفاجأة أشد من أن يحتملها قلبها الرقيق ..
فقدت وعيها حينما كشفت أنه يتزعم قائمة أصحاب القلوب التى لا تنبض ..
وأنه الرجل الذى حطم حياتها ..
لم يكن هذا يثير فى قلبه نبضة واحدة ..

كان يبدو كالوحش المفترس وهو يشعل سيجارته ، ويدفع جسدها الرقيق بقدمه ، قائلا فى شراسة :

– لقد أصبحت تمثّل لنا خطورة بالغة ، لا بد من التخلص منها ..

تردد الرجل الواقف أمامه ، وقال :

– هل .. هل نقتلها ؟

نفث (فتحى الجروانى) دخان سيجارته ، وقال فى بساطة ، وكأنه يتحدث عن أمر عادى من أمور الحياة :

– لم يعد هناك حل آخر ، ستحملها أنت و (شوق) فى سيارة قديمة ، وتختاران أعلى قم المقطم ارتفاعاً و ...

لم يتم عبارته ..

اكتفى بإشارة من يده تعنى إلقاء السيارة بها من أعلى المقطم ..

ظهر التردد فى ملامح الرجل ، ولكنه لم يجرؤ على عصيان أمر زعيمه ..

حملها فى استسلام إلى سيارة قديمة تحمل أرقاماً مزورة .

ومن العجيب فى هذا العالم أن بعض القلوب الصخرية تنبض أحياناً ..

هـذا ما انتاب الرجل وهو يقود السيارة القـديمة بصحبة زميله فوق سفح المقطم ..

تردد طويلا وهو يتأمل محياها الجميل ...

كان يشعر أنه من الخسارة أن يختطف الموت زهرة مثلهـا ..

كان تردده واضحاً حتى أن زميله قال فى سخرية :

– ماذا أصابك يا (علوان) ؟.. هل تخشى قتلها ؟

مطّ (علوان) شفتيه ، وقال فى إشفاق :

– إنها فى مثل عمر ابنتى ..

أطلق (شوق) ضحكة ساخرة ...

هكذا القتلة الأشرار ..

لا يثير القتل فى نفوسهم شيئاً ..

لا تختلج عضلاتهم لذكره ..

ولا ترتجف قلوبهم لفعله ..

لأن قلوبهم تختلف ..

فهى قلوب لا تنبض ..

لم يكن قتل (سلوى) يمثل فى نظر (شوق) أكثر من مهمة عادية ..

أما (علوان) فالأمر عنده يختلف ..

كانت (سلوى) تشبه ابنته حقًّا .. وكان هذا يدفعه إلى التردد والقلق ..

كان يطيل النظر إلى وجهها ما بين لحظة وأخرى ..

وفى هذه المرة كانت السيارة قد اقتربت من هدفها ، فأطال النظر إلى وجه (سلوى) وكأنه يتزود بجرعة أخيرة من جمالها ورقتها ..

وفجأة صرخ (شوقى) :

ـ احترس أيها الغبى ..

رفع (علوان) رأسه فى ذعر ، ورأى سيارة تواجهه تمـاماً ..

أدار عجلة القيادة فى رعب وتوتر ..

أدارها فى الاتجاه الخاطئ ..

وهوت السيارة بحملها من فوق سفح المقطم ..



١٢ ـ الجنـــون ..

انطلق (ممدوح) بسيارته يجوب شوارع القاهرة فى جنون ..

كان كمن يبحث عن إبرة فى كومة من القش ..

إنه يبحث عن زهرة وسط زحام المدينة ..

تضاعف جنونه ، حين عاد إلى منزلها فى الواحدة بعد منتصف الليل ، فكشف أنها لم تعد بعد ..

وهنا فعل ما يقدم عليه عادة ضابط الشرطة ..

زار كل أقسام شرطة القاهرة بحثاً عنها ..

راجع كل بلاغات الحوادث والانتحار ..

أدرك فى تلك الليـلة أن المدن تزدحم بمئـات ممن لا قلوب لهم ..

مئات من أصحاب القلوب التى لا تنبض ..

عشرات الجرائم ترتكب فى الليلة الواحدة ..

مئات الحوادث ..

العنف لا يخلو منه كل حى وكل منطقة ...

حاول أن ينضو عنه ثوب اليأس ، حينما أشارت عقارب الساعة إلى الرابعة صباحاً ..

لم يكن يستطيع أن يتصور ضياع (سلوى) منه ، بعد أن قرر أن يتحدى العالم كله من أجلها ..

بلغت نبضات قلبه سرعتها القصوى وهو يتخيل فقدها.

دفعه هذا التصور إلى مضاعفة سرعة سيارته وهو يعبر الطريق إلى قسم شرطة المقطم ..

استقبله الضابط النوبتجى هناك بالترحاب ، فقد كان زميلا سابقاً له ، ولكن (ممدوح) بادره بالسؤال عن الحوادث فى لهفة ، وأدلى إليه بأوصاف (سلوى) تفصيليًا.

عقد الضابط النوبتجى حاجبيه ، وقال :

- أعتقد أننى أذكر هذه الأوصاف .. نعم إنه حادث العاشرة مساء ..

هبط قلب (ممدوح) إلى قدميه وهو يردد فى جزع :

- حادث العاشرة ؟ !

قلب الضابط النوبتجى ملف الحوادث وهو يقول :

- نعم .. لقد سقطت سيارة من سفح المقطم فى العاشرة مساء ، وكانت تقل رجلين وفتاة ، لقى أحد

الرجلين مصرعه على الفور ، وعثرنا فى سترته على بطاقة شخصية تحمل اسم (شوقى فراج) ، موظف بمعرض (الجروانى) للسيارات .

شعر (ممدوح) أن ساقيه تعجزان عن حمله ، فاستند إلى حافة مكتب الضابط النوبتجى وهو يردد فى ذهول :

- معرض (الجروانى) ..

من المستحيل أن يكون الأمر مجرد مصادفة ..

هل فقد (سلوى) ؟ ..

هل ضاع حبه الوحيد ؟ ..

استطرد الضابط النوبتجى ، دون أن يلحظ شحوب وجه (ممدوح) :

- أما الفتاة والرجل الآخر فقد أصيبا إصابات بالغة ، وأعتقد أن أوصاف الفتاة تنطبق على الأوصاف التى ذكرتها ، ولقد تم نقلهما إلى المستشفى على الفور ..

كان (ممدوح) كالمجنون وهو يقود سيارته إلى المستشفى ...

كان قلبه يدق عالياً بين ضلوعه ..

اقتحم حجرة طبيب الطوارئ فى عنف ، وسأله فى حدة عن الحادث ، ويبدو أن أطباء الطوارئ يعتادون مثل هذا التوتر ، إذ أجابه الطبيب فى هدوء :

– حالة المصابين خطيرة للغاية ، ولكن الرجل يمكنه الحديث ، ولقد أدلى باعتراف مثير للغاية ، وهو يقول إن إصابته جاءت عقاباً له على محاولة قتل الفتاة .

صرخ (ممدوح) فى جنون :

– قتلها ؟

ظل الطبيب على هدوئه وهو يتابع :

– أما الفتاة فحالتها شديدة الخطورة ، وأخشى أن تكون قد أصيبت ببعض التهتك فى خلايا المخ .

سأله (ممدوح) وهو يترنح من هول الصدمة :

– هل يمكننى رؤيتها ؟

قاده الطبيب فى بساطة إلى حجرة العناية المركزة ..

انهارت مقاومة (ممدوح) حينما وقع بصره على وجه (سلوى) المحاط بالضمادات ..

كانت فاقدة الوعى تعانى سكرات الموت ..

وانحدرت الدموع من عينى (ممدوح) ..

ربما لأول مرة منذ حداثته ..

فقدت عيناه صرامتهما ..

انهارت صرامته تماماً وهو يغمغم باسمها ..

باسم الإنسانة الوحيدة التى أحبها فى حياته ...

تعلق بذراع الطبيب ، وقال فى لهجة أقرب إلى التوسل والرجاء :

– هل ستنجو ؟ !

مط الطبيب شفتيه ، وهز كتفيه فى حيرة وهو يقول :

– لقد تحطم جزء من جمجمتها ، وأصيب المخ بأضرار بالغة ، والأمر يحتاج إلى متخصص فى جراحة المخ والأعصاب ، ولن يمكنك العثور على واحد فى هذه الساعة .

صرخ (ممدوح) فى رجاء :

– بل هناك واحد .. الدكتور (أحمد سمعان) .

رفع الطبيب حاجبيه فى دهشة ، وقال فى لهجة تنم عن الشك :

– الدكتور (أحمد سمعان) ؟ ! .. أستاذ جراحات المخ والأعصاب ؟ !

صاح (ممدوح) فى لهفة :

– نعم .. نعم .. هل هناك هاتف ؟ ..

كان لرنين الهاتف فى فيلا الدكتور (أحمد سمعان) وقعاً قويًّا فى الخامسة والنصف صباحاً ..

اندفعت (كوثر) هانم زوجة الدكتور (أحمد) إلى الهاتف فى لهفة وقلق ..

وقفز خلفها الدكتور (أحمد) ..

لم يكن أحدهما قد ذاق النوم لحظة طيلة الليل ، حينما لم يعد (ممدوح) إلى المنزل ..

التقط الدكتور (أحمد) سماعة الهاتف أولا ، وصاح فى لهفة :

– هنا الدكتور (أحمد سمعان) من المتحدث ؟

ثم لم يلبث أن هتف ، حين سمع صوت محدثه :

– (ممدوح) !! أين أنت ؟ .. لقد أثرت قلقنا طوال الليل و ...

توقف الدكتور (أحمد) عن إتمام حديثه ، وعقد حاجبيه على نحو أثار قلق زوجته ، فهتفت فى جزع :

– هل أصابه شىء ؟ !

أشار إليها الدكتور (أحمد) أن تصمت وهو يواصل استماعه ، ثم غمغم :

– سأحضر على الفور ..

هرعت (كوثر) هانم خلفه وهو يسرع إلى حجرته ، وسألته فى لهجة أقرب إلى البكاء وهو يبدل ملابسه على عجل :

– أرحنى ، هل أصابه مكروه ؟

أجابها فى صرامة أدهشتها :

– إنه بخير ، ولكن (سلوى) أصيبت فى حادث ، وتحتاج إلى عملية جراحية عاجلة فى المخ .

صرخت فى ذعر :

– فى المخ ؟ !

أجابها وهو يلتقط مفاتيح سيارته ، ويسرع مغادراً الفيلا :

– فلندعُ لها بالشفاء .

انطلق بسيارته كالصاروخ إلى المستشفى ..

كشف فى هذه اللحظة أنه يميل إلى (سلوى) حقًّا ..

ترى هل إصابتها خطيرة ؟ ! ..

هل يمكنه معاونتها حقاً ؟ ..

وعد نفسه أن يوافق على زواجها من ابنه (ممدوح) إذا ما كتب لها الشفاء ..

لم يتصور فى نفسه كل هذه القدرة على الحب والعطاء إلا هذه اللحظة ..

كان يشعر بقلق حقيقى نحوها ..

أوقف سيارته أمام المستشفى ، وقفز فوق درجات السلم إلى قسم الطوارئ ..

لم يكد (ممدوح) يلمحه حتى أسرع إليه بعينين مغرورقتين بالدموع ، وتعلق به هاتفاً :

– ابذل قصارى جهدك يا أبتاه .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها الأب ابنه باكياً منذ تجاوز مرحلة الطفولة ..

عهده به دائماً قوياً صارماً وهو يجتاز أشد الصعاب ..

شعر أن دموعه تمزق قلبه ، فربت على كتفه فى حنان ، وقال :

– لن أدخر وسعاً من أجلها يا بنىّ .

ثم استدار إلى طبيب الطوارئ ، وقال فى هدوء :

– دعنا نفحصها أولا ..

راقب (ممدوح) والده وهو يفحص (سلوى) ..

راقبه من خلف الحاجز الزجاجى لحجرة العناية المركزة ..

ارتفعت نبضات قلبه ، وهو يحاول عبثاً أن يقرأ الكلمات من فوق شفتى والده ، وهو يتحدث إلى طبيب الطوارئ ..

من حسن حظه أنه لم ينجح ، فما كانت كلماتهما لتسعده ..

كان الدكتور (أحمد سمعان) يقول فى أسف :

– حالتها بالغة الخطورة ، ولا أعتقد أنها تحتمل إجراء عملية جراحية .

قال طبيب الطوارئ :

– هل يمكننا أن نحاول ؟

مط الدكتور (أحمد) شفتيه ، وقال :

– أنا طبيب ولست صانع معجزات .

سأله طبيب الطوارئ وهو يتأمل ملامح (سلوى) الجميلة فى أسف :

- إذن فحالتها ميئوس منها .

أومأ الدكتور (أحمد) برأسه إيجاباً ، واستدار يتهيأ الانصراف ..

ولكن عينيه التقتا بعينى (ممدوح) عبر الحاجز الزجاجى ..

كانت عينا (ممدوح) ضارعتين متوسلتين ..

لم يحتمل الأب نظرات ابنه ..

دار فى أعماقه حوار عجيب لم يسمعه مخلوق :

- الأمل فى شفائها لا يتجاوز واحداً فى المليون .

- لماذا لا تحاول ؟

- أعلم أنها لن تنجو ، وسيتهمنى ابنى بقتلها .

- ربما أراد لها الله - سبحانه وتعالى - النجاة .

- ربما ..

- لم لا تحاول إذن ؟

- أخشى أن تلقى مصرعها فيكرهنى (ممدوح) ما بقى له من عمر .

- سيكرهك لو رفضت أن تعاونها ، وسيغفر لك لو حاولت .

- أخشى أن أمنحه أملا زائفاً ..

- حاول .. من يدرى ؟ !

- نعم .. من يدرى ؟

استدار فجأة إلى طبيب الطوارئ ، وقال :

- سنجرى العملية على بركة الله .

* * *



١٢ - الرحيل ..

عبر النقيب (سالم) ممرات المستشفى فى خطوات سريعة ثابتة ، ولم يكد بصره يقع على (ممدوح) الذى بدا شديد التوتر والإرهاق ، ويتحرك فى عصبية جيئة وذهاباً أمام غرفة العمليات ، حتى بادره بالتحية ، وقال :

— يبدو أن سعيك لحل قضية (إبراهيم عاشور) قد تكلل بالنجاح يا (ممدوح) .

نظر إليه (ممدوح) فى شرود ، وكأنه يراه لأول مرة ، ثم غمغم فى ضعف :

— لماذا أتيت إلى هنا فى السادسة صباحاً يا (سالم) ؟

أجابه (سالم) فى هدوء :

— لقد أدلى مصاب هنا يدعى (علوان الملوانى) باعتراف مثير ، انتزعنى من فراشى انتزاعاً ، هل تعلم أن اعترافه يكفى لوضع (فتحى الجروانى) خلف القضبان .

لوّح (ممدوح) بكفه ، وقال :

— لم يعد هذا يعنينى يا (سالم) ، فليذهب (الجروانى) إلى الجحيم .

عقد (سالم) حاجبيه ، وتأمل صديقه وزميله فى أسف ..

كان يعلم أنه يعانى قلقاً رهيباً على حبيبته التى تعلقت روحها الآن بين السماء والأرض ..

ظنّ أن خبر نجاح محاولته قد يسعده ..

ولكنه كشف الآن أن (ممدوح) لم يعد يفكر إلا فى (سلوى) ..

(سلوى) فقط ...

والدته (كوثر) هانم أيضاً كانت تدور كالجريحة فى ردهة الفيلا وهى تفكر فى (سلوى) ..

شعرت بالندم والحزن على ذلك الموقف الصارم ، الذى اتخذته حيالها ..

تساءلت فى أعماقها : لماذا تدان تلك المسكينة بجريمة والدها ..

فركت كفيها فى عصبية وهى تستعيد كل كلمة أساءت بها إلى (سلوى) ..

تذكرت رقة (سلوى) ، وجمالها ، وأسلوبها المهذب.. وبكت ..

بكت (كوثر) هانم بدموع حقيقية ساخنة ..
غسلت دموعها كل الصرامة والقسوة فى أعماقها ..
رفعت عينيها الدامعتين إلى السماء فى ضراعة ، وهتفت :
– عاونها يا ربى ..
تردد الدعاء على شفتى الدكتور (أحمد سمعان) فى اللحظة ذاتها ..
كان يحاول المستحيل من أجل إنقاذ حياة (سلوى) ..
كانت يداه تعملان فى سرعة ومهارة لعلاج إصاباتها ..
كان يعلم أن مهمته ليست بالهينة ..
لقد مضت فترة طويلة ما بين الإصابة والعلاج ..
وجسد (سلوى) رقيق ضعيف ..
كان يعلم أن مهمته لن تكلل أبداً بالنجاح الكامل ، فقد تلفت بعض خلايا المخ ، ولو قدر لـ (سلوى) أن تعيش ، فلا بد لها من أن تفقد بعض حيويتها أو حواسها ..
كان من العسير عليه أن يتصور غير ذلك ..
بل إنه فى أحد اللحظات تمنى ذلك ..
تمناه عوضاً عن موتها ..
راودته فكرة عجيبة فى هذه اللحظة ..

ترى هل كانت ستتعرض لكل هذا ، لو أن والدها اتخذ الأسلوب الصحيح ، وأبلغ الشرطة عن (فتحى الجروانى) بدلا من أن يحاول ابتزازه ؟
والدها الذى يرقد داخل زنزانة تحيط بها القضبان ..
والدها الذى ينام هذه الليلة ملء جفنيه بعد أن أراح صدره باعترافه ..
نام لأول مرة منذ دخوله السجن ..
لم يكن يعلم شيئاً عما أصاب ابنته ..
كان يتصور أنها فى أمان إلى جوار النقيب (ممدوح) ..
لم يكن يدرى أن النقيب (ممدوح) يلوم نفسه أشد اللوم فى هذه اللحظة بالذات ..
كان يتحرك أمام حجرة العمليات فى قلق وتوتر بالغين ..
عيناه تعلقتا بباب حجرة العمليات فى إشفاق ..
لم يستطع أن يبعد عن رأسه فكرة أنه المسئول الأول عما أصابها ..
كان عليه أن يدرك منذ سدد إيجار منزلها أنها لا تملك نقوداً ..

كان ينبغى أن يمنحها ما تحتاج إليه من مال حينئذ ..

لا ريب أنها غادرت منزلها بحثاً عن عمل ..

عاد عقله ينبئه أنه القدر ..

القدر الذى اختار لها هذا المصير ..

ارتجف قلبه وهو يتصور فقدانه لها ..

لم يحتمل الفكرة ، فاستند برأسه إلى الجدار المجاور لحجرة العمليات ، وضرب قبضته فيه بقوة ..

حل أزرار سترته وكأنه يتلمس بعض الهواء ..

كان يشعر حقًا بالاختناق كلما انتابته هواجس فشل العملية ..

رفع رأسه إلى السماء ، وأقسم أن يتزوجها إذا ما قدّر لها الشفاء ..

سيتزوجها حتى لو غضبت والدته ..

سيتزوجها حتى لو رفض والده ..

سيتزوجها ؛ لأنها الحب الوحيد فى حياته ..

عجيبة هى دنيانا ..

لقد عاشت (سلوى) وسط قلوب بلا نبضات ..

والتفت كل القلوب النابضة حولها وهى أقرب إلى الموت.

ترى هل كان مصيرها يتبدل ، لو أحاطت بها هذه القلوب النابضة منذ البداية ؟ ..

هذا ما دار فى ذهن (ممدوح) ، وعيناه تتعلقان بباب حجرة العمليات ..

مضت الدقائق كالدهر فى بطء ..

وازداد تخاذله ويأسه كلما مضى الوقت ..

وأشارت عقارب الساعة إلى السابعة والربع ، حينما فتح باب حجرة العمليات ..

اعتصرت يد باردة قلب (كوثر) هانم فى الفيلا ..

أسى رهيب اجتاح جوانبها دون أن تدرى له سبباً ..

انقبض قلب (إبراهيم عاشور) فى سجنه ..

حزن عميق سرى فى عروقه فجأة ..

ردد اسم ابنته فى ذهول كأنما أصابه الجنون ..

التقت عينا (ممدوح) بعينى والده فى رجاء ولهفة ..

كانت عينا الوالد تحملان الجواب ..

تحملان دموع الألم والفشل والمرارة ..

دموع حزن لن تمحوه الأيام ..

وترنح (ممدوح) كالذبيح ..

عجزت قدماه عن أن تحملاه ، فانهار فوق مقعده ، ودفن وجهه بين كفيه ..

لقد رحلت (سلوى) ..

ضاع حبه الأول والأخير ..

دفعت روحها الطاهرة ثمناً لعذاب عالم لا تنبض فيه القلوب ..

أصبحت هي أيضاً واحدة من أصحاب قلوب لا تنبض ..

فرغ قلبها من كل نبضات الحب والحنان والعطاء ، فاستكان واستسلم للقدر ..

القدر الذى أبى إلا أن يحرمها من الحياة ، حينما التفت حولها القلوب ..

لم يتمن (ممدوح) الموت بأكثر مما تمناه هذه اللحظة ..

لقد شعر أنه قد مات بالفعل ، ولكنه ينتظر لحظة دفنه ..

شعر أن قلبه لن ينبض بعد الآن ..

وانضمّ اسم جديد إلى قائمة القلوب التى لا تنبض .

(تمت بحمد الله)

● العدد القادم ●

الدموع الباردة

(نهال حمدى) أشهر وأسطع نجمة سينمائية فى مصر ، وصاحبة الدموع الغزيرة على الشاشة الفضية ، لها آلاف المعجبين والمعجبات ، وجدت نفسها يوماً أمام الدكتور (فؤاد) ، الرجل الوحيد الذى لم يسمع باسمها من قبل فى مصر بأكملها ..

لم تحتمل وجود رجل واحد يهمل شأنها ، فاندلعت بينها وبينه حرب باردة سالت فيها أنهار من دموع كالثلج ..

ولكن إلى أين تقود هذه الحرب ؟

المؤلف

د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

٣

قلوب لا تنبض

وجدت (سلوى) نفسها ضائعة، بعد أن أدين والدها فى قضية مخدرات، وأدركت بعد سجن والدها أنها تعيش فى عالم يخلو من القلوب النابضة.. حتى التقت بـ(ممدوح) ووجدت عنده الحب والحنان والدفء، ولكن القدر أبى إلا أن يقيم أسوارا وحواجز حول حبهما.. وكان عليها أن تقرر: أتتحدى القدر؟ أم تقضى عمرها كله وسط قلوب لا تنبض؟!

الثمن
ومايعادل دولارا أمريـ[illegible] ـدول العربية والعالم